

كان الله ولم يكن سواه

سید احمد آمین

إهداء :

يا باغي العز في غير موضعه..... كفاك عبثاً
فأنت من طين
لو تعلم قدر الله لم تعصه..... فالسموات من
خلقه والأراضين

مقدمة :

سوف أتكلم بفضل الله تعالى عن رب العالمين
وكيف أن الله خلق كل شيء من أجل البشرية
وأسجد للإنسان ملائكته الكرام مع عظمتهم

ومكانتهم وقربهم من الله وتعبدهم إياه وعدم
معصيتهم طرفة عين.

الحمد لله المتكبر الجبار مقلب الليل على النهار
وخالق الأكوان خلق السماوات والأرض وما
بينهما العزيز الغفار ويسبح الرعد بحمده
والملائكة من خيفته وخلق الجبال والوديان
والسهول والبحار والأنهار يعلم عدد ما في
الأرض من رمال ويعلم عدد ورق الشجر وعدد
قطر الندى وما يخفى على الله من شيء في
الأرض ولا في السماء ونشهد أن لا إله إلا الله
وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم خير
من صلى وصام وعلم قدر ربه فلم يهنئ بعيش

في الدنيا واشتاق للقاء ربه ومولاه ونصلي
ونسلم علي اله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً ثم أما
بعد :

الله كما وصف نفسه :

فقد كان الله ولم يكن سواه وكان عرشه على
الماء فهو الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء
والظاهر فلا شيء فوقه والباطن فلا شيء دونه
الكبير المتعال الواسع العليم الحكيم فلا حدود
لملكه ولا نظير لمثله ولا شبيهه في نظير له ولا
ند له لم تكن له صاحبة ولا ولد ولا والد ولا
شريك أمره بين الكاف والنون إذا أراد شيئاً أن
يقول له كن فيكون الكل له عبد فما من ملك في

السموات والأرض ولا صغير ولا كبير إلا أمره
 بين يديه ومتفضل عليه وهو خالق كل شيء
 ويبيده كل شيء خلق السماوات والأرض بالحق
 وخلق ما بينهما في ستة أيام وما مسه من
 لغوب ومن عرف واطلع ورأى سعة الأجرام
 والنجوم والكواكب وما فيها من عظمة
 وجبروت ومنظر مهيب يخلع القلب خلعاً لعلم
 أيضاً عظمة خالق الكون فإذا كان هذا النجم أو
 هذا الكوكب به من العظمة والشموخ والقوة ما
 به فما بالك بمن خلقهم وصورهم فكيف بمن
 كان بينه وبين أبعد مخلوق من السنين الضوئية
 بلايين السنين ويعلم ما في الصخرة الصماء

في الليلة الظلماء ؛ (يعلم ما يلج في الأرض وما
 يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها
 وهو معكم أين ما كنتم وهو اللطيف الخبير
) ولكن ما أتحدث عنه هو كيف أن الله خلق
 الإنسان وجعله خليفته في أرضه وخلق من
 أجله الكون كله (خلق السماوات والأرض
 بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على
 الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل
 مسمى ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى
 تصرفون) فالله جل وعلا لا يحويه زمان ولا
 يحويه مكان علا فوق السماوات وهو على
 عرشه ولكن العرش لا يحمله بل العرش

وحملته والكرسي وعظمته الكل محمول بقوته
 فهو أقوى من أي شيء ولا يعجزه شيء في
 الأرض ولا في السماء لا ينفعه أي شيء ولا
 يضره شيء لا عظيم سواه ولا ملك إلا هو
 الحي القيوم لا ينام ولا ينبغي له أن ينام لا
 يحتاج لشيء من طعام أو شراب أو مما نحتاجه
 نحن بل كل شيء في احتياج له هو لا ند له ولا
 صاحب له ولا ولد ولا والد له ، لا الزمن يدركه
 ولا ما نعلمه يكفينا لنفهم غير ما علمنا عنه
 فعقولنا ضئيلة قاصرة فنحن نفهم أن لكل شيء
 نهاية وبداية ولكل مخلوق خالق وهناك ماضي
 وحاضر كل ذلك لا يكون إلا مع المخلوق فالإمام

أبو حنيفة النعمان لما سئل هل كان قبل الله من شيء؟ فقال الإمام وهل قبل الواحد من شيء فقال له لا فقال الإمام: لم يكن قبل الواحد العدد من شيء وهذا عددا فكيف بالواحد الأحد؟ لم يكن قبل العدد واحد سوى صفر أي لا شيء فلماذا لم تسأل نفسك يوماً ماذا قبل الواحد؟ وهل كان الواحد العدد معه أي عدد آخر قبل أن يكون واحداً أم كان وسيظل هو ذاك الواحد الفردي فهل بعد ذلك نسأل هل كان هناك مع الله الواحد الأحد أي أحد أو قبله أي أحد وهو الذي لم يأت أي أحد لينازعه في ملكه أو يخاصمه في أي شيء أو يقول بأنه رب الأرباب وممطر السحاب

وخالق هذا الكون وما فيه ، فإذا كان الله هو
 الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد
 ولم يكن له كفواً أحد فإذاً عقلة يعجز أن يتصور
 أن الله كان ولم يكن سواه وعلمه فوق كل علم
 وسمعه وبصره يفوق الأذهان والأفهام فمن أجل
 رجل أو امرأة آدمية قد امتثل لأمره وانتهى عما
 نهى وتعيد له سبحانه فيفرح الله لذلك ويباهي
 الملائكة بهذا الرجل الذاكر ويعلم جبريل بأنه
 يحب فلان ويفرح بتوبة عبده العاصي إذا رجع
 إليه نائباً بل أعد جنة عرضها السموات
 والأرض لمن أطاعه وزرع ووضع فيها ما لا
 عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب

بشر وأسجد لهذا الآدمي ملائكته الكرام الأبرار
 وشيد السماء والأرض وما بينهما من أجل
 الإنسان وذلك كل شيء في الأرض للإنسان
 وسخر الشمس والقمر والبحار والأنهار وما
 ذرا في الأرض من أجل بن آدم وجعل له أرزاق
 وأجال وقيامة وحساب وجنة ونار وأباد من أجل
 أنبياءه ورسله الكثير من الناس وأغرق وحرق
 وعذب وهلك ما لا يحصى من الناس من أجل
 من أطاعه وأحبه ومع ذلك هو الرحيم الغفور
 الودود البر الرحمن ومع ذلك كله فهو يجمع
 بين القوة والود والرحمة والجبروت والبر
 والكبر فهو منتقم جبار ومتكبر يقطع اليد في

درهمين ويرجم في الزنا ويقتل في قتل ولا يبالي
 بمن عصاه في أي واد يهلك وينسى من نساه
 ويعذب من كفر به وعبد غيره لأنه هو الذي
 خلقه ورزقه وتولى حياته وكل شيء له
 ويرضي عن أطاعه وأحبه بل يفعل له العجائب
 يدافع عنه ويمده بكل ما أراد من نعيم وينسى
 الإنسان خالقه وعظمته وأنه سريع العقاب
 يمهل عبده ليرجع ويتوب لأنه سبحانه وتعالى
 خلق هذا الإنسان وكرمه في أحسن تقويم وجعل
 له مكانة بين المخلوقات حتى بين ملائكته
 الكرام ولو يعلم الإنسان ما بين السماء والأولى
 فقط والأرض من عجائب لظل خاشعاً أو لمات

من شدة الخوف والهلع فقد خلق الله ملايين الشموس وملايين النجوم وملايين الكواكب والمجالات وبعض هذه الأشياء أُنعمت مواد نووية أو مغناطسية أو نيتروجينية مما يجعل من هذه المخلوقات الأثر البالغ في القوة والجبروت فلو وقع أقل مذنب مما يزن بعض الأطنان لحول مساحة كبيرة في الأرض إلى جحيم ناهيك عن نجم كالشمس التي لا تمثل أرضنا الشيء اليسير من الشمس وهذه الشمس أقل النجوم في مجرة التبانة التي نحن سكان الأرض وما عليها من بحار وجبال ومحيطات لا...نمثل واحد على مليار من هذه المجرة

قال الله تعالى: {الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

وَكِيلٌ} (62) [الزمر]: [62].

وقال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ

اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ} (29) [البقرة]: [29].

وقال الله تعالى {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا

فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ

قَدِيرٌ} (29) [الشورى]: [29]. الله تبارك وتعالى هو رب

العالمين، وهو الخلاق العليم، الذي خلق هذا الكون العظيم،

وما فيه من المخلوقات التي لا يحصيها ولا يعلمها إلا الله وحده. فخلق الله العرش والكرسي، وخلق السموات والأرض، وخلق الشمس والقمر، وخلق الملائكة والروح، وخلق النبات والحيوان، وخلق الإنس والجن، وخلق الجبال والبحار، وخلق الماء والنار، وخلق كل شيء، وقدر خلق كل شيء، وأحسن خلق كل شيء: {هَذَا خَلَقُ اللَّهِ فَأَرْوِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ... } (11)[لقمان: 11]. وإذا تأمل الإنسان هذا العالم بعين البصيرة وجدته كالبيت المبني، المعد فيه جميع آلاته

ولوازمه ومصالحه، وكل ما يحتاج إليه. فالسماء سقفه
المرفوع، والأرض مهاد وبساط، وسكن وفراش، وذلول،
والشمس والقمر سراجان يزهران فيه، والنجوم مصابيح له
وزينة، وأدلة للمسافر في طرق هذه الدار. وأنواع النبات
مهيأ لماآربه من حلو وحامض، وحر وبارد، وحبوب وثمار
وأزهار. وصنوف الحيوان مصرفة لمصالحه، فمنها المأكول،
ومنها المركوب، ومنها الحلوب، ومنها اللباس والأمتعة
والحراسة.

والجواهر والمعادن خلقها الله، وجعلها مخزونة فيه كالذخائر

المهياة، كل منها لشأنه الذي يصلح له، من ذهب وفضة،

ونحاس وحديد. وجعل سبحانه في هذا البيت النار للتسخين

والإنضاج، والماء للشرب والتبريد، والهواء للتنفس

والتنشيف، والجو للشمس والقمر يجريان فيه، والسحب

والطير يسبحان فيه.

وجعل سبحانه الإنسان كاملك المتجول في ذلك كله،

المتصرف فيه بفعله وأمره، وكل ما فيه سخر له: {أَلَمْ تَرَوْا

أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ

عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ

عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ } (20) [لقمان]:

[20]. فسبحان من أبدع هذا الخلق .. ونظمه أحسن نظام

.. وتفرد بالخلق والأمر .. وتوحد بالجلال والجمال ..

واختص بالكبرياء والعظمة. وكما يستحيل أن يكون المدبر

للبدن روحان، فكذلك يستحيل أن يكون المدبر للعالم

العلوي والسفلي إهان: { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا

فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ } (22) [الأنبياء]:

[22]. والله جل جلاله خلق العالم بعضه فوق بعض، ولم يجعل

أعلاه مفتقراً إلى أسفله، ولا أسفله مفتقراً إلى أعلاه، بل

جعل الجميع مفتقراً إليه وحده لا شريك له. فالسمااء
والسحاب والهواء فوق الأرض، وليست مفتقرة إلى حمل
الأرض لها، بل الله الذي يمسك السمااء أن تقع على الأرض،
ويسوق السحاب حيث شاء، ويرسل الرياح كيف شاء.
والعرش والكرسي فوق السمااء، وليست مفتقرة إلى حمل
السمااء لها، والعلي الأعلى، رب كل شيء ومليكه فوق
جميع خلقه، ليس محتاجاً إلى عرشه أو كرسيه ليحمله. بل
العرش والكرسي، والسماوات والأرض ومن فيهن، والملائكة
والروح، والإنس والجن، والخلق كلهم محتاجون إلى الله

سبحانه في خلقهم وبقائهم، فهو الغني وحده، وكل ما سواه

مفتقر إليه مملوك له. وما السموات السبع والأرضين السبع

وما فيهما في يد الله إلا كخردلة في يد أحدنا: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ

حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ

مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} (67) [الزمر:

67]. والله عزَّ وجلَّ بذاته وعظمته وكبريائه مستوٍ على

عرشه، فوق سماوته فوق جميع الخلائق، يعلم أحوالهم،

ويسمع أصواتهم، ويرى كل ذرة فيهم. هو العلي الأعلى، له

علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القهر والغلبة، وهو

العلي الكبير، استوى على العرش الذي هو أكبر مخلوقاته،
وبجوله وقوته سبحانه حمل العرش، وحمل حملة العرش. وهو
جل جلاله الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا
بإذنه، ويمسك السموات والأرض أن تزولا، وهو الباقي،
وبقاء كل شيء بأمره، وكل شيء هالك إلا وجهه. فيعصى
من هذا ملكه .. وهذا خلقه .. وهذه قدرته ..؟ والله
سبحانه هو الذي خلق السماء وزينها بالنجوم والكواكب،
وخلق الأرض وزينها بما على ظهرها من المياه والنباتات،
وأحاط الأرض بالمياه من جميع الجوانب، وفرشها بأنواع

النباتات لأجل الإنسان، ووضع عليها سبحانه مائدة نعمه،

فجميع الحيوانات والطيور، والبهائم والحشرات، وسائر

البشر كلهم يأكلون ويشربون منها هو: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ

الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (53) كَلُوا وَارْعَوْا

أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى } (54) [طه: 53

– 54]. وقد خلق الله كل نفس ورزقها، وحدد أجلها، فلا

تموت حتى تأكل رزقها، ولا يستطيع أحد أن يحول بينها وبين

رزقها. والله تبارك وتعالى خالق كل شيء .. خلق الإنسان

في أحسن تقويم .. والإنسان ذرة بالنسبة إلى أرضه .. وأرضه
 ذرة بالنسبة إلى الكائنات .. وكذا الإنسان ذرة بالنسبة إلى
 نوعه .. ونوعه ذرة بالنسبة إلى شركائه في هذا الكون
 الكبير. فسبحان الخلاق العليم، وسبحان الرزاق الكريم،
 المنعم على جميع الخلائق، الفعال لما يريد، وهو على كل
 شيء قدير، وهو البصير الذي يرى حاجة المرزوق إن لم
 يطلب، وهو السميع الذي يسمع كلامه إن طلب، الرزاق
 الذي يرزق من شاء، في أي وقت شاء، وبأي قدر
 شاء؟. وهذه الدواب كلها تأكل من رزقه، ولا ينقص ما في

خزائنه إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر. وهذا الكون
كله .. سماؤه وأرضه .. ظاهره وباطنه .. ملائكته ودوابه ..
إنسه وجنه .. حيوانه وطيئه .. كله مخلوق .. والمخلوق
مملوك .. محتاج في وجوده إلى ربه .. ومحتاج في بقائه إلى ربه
.. ومحتاج في نفعه وضره إلى ربه .. من الذرة إلى الجبل ..
ومن القطرة إلى البحر .. ومن النفس إلى الآفاق .. ومن
السنبلة إلى الغابات .. ومن النملة إلى جبريل .. ومن الذرة
إلى العرش. كل هذا مخلوق، والمخلوق لا يملك لنفسه فضلاً
عن غيره نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فكل

شيء بيد الله، وكل ما سواه محتاج إليه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ

الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} (15) [فاطر:

15]. وقال سبحانه: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا

إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ

وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ ... } (188) [الأعراف: 188]. والله جل جلاله

خلق المخلوقات التي لا يحصيها إلا هو، وفضل بعضها على

بعض من أماكن وأزمان، وأشخاص وأحوال، وسلط بعض

مخلوقاته على بعض، وقهرها بها. فخلق الشمس وسلط

نورها على الظلام .. وخلق السباع وسلطها على الحيوان،

وخلق الجبال تقهر الرياح .. وسلط الحديد على الجبال

يقطعها .. وسلط النار على الحديد تذيبه .. وسلط الماء

على النار يطفئها .. وقهر الماء بالهواء يرده .. والله قاهر

كل قاهر. فسبحان القهار الذي قهر جميع الخلائق على ما

أراد، القاهر فوق عباده: {سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ

الْقَهَّارُ} (4) [الزمر: 4]. وفضل سبحانه بعض الأماكن

على بعض .. ففضل الآخرة على الدنيا .. وفضل بيته الحرام

على سائر الأماكن .. وفضل بيوت الله على سائر بقاع

الأرض. وفضل يوم الجمعة على سائر أيام الأسبوع ..

وفضل ليلة القدر على سائر الليالي .. وفضل شهر رمضان

على سائر الشهور .. وفضل يوم النحر على سائر أيام العام.

وفضل المؤمنين على الكفار .. والأبرار على الفجار ..

وفضل بعض الرسل على بعض .. وفضل الإنسان على غيره

من المخلوقات.

فجعل أصح المخلوقات مزاجاً هم بنو آدم، وأصح بني آدم

مزاجاً هم المؤمنون، وأصح المؤمنين مزاجاً هم الأنبياء

والرسل، وأفضلهم أولو العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى

ومحمد عليهم الصلاة والسلام. وأفضل أولي العزم الخليلان

إبراهيم ومحمد عليهما السلام. وأفضل الخليلين محمد –

صلى الله عليه وسلم – الذي كان أحسن الناس خلقاً

وخلقاً، وكان خلقه القرآن، يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويمتثل

أوامره، ويجتنب نواهيه، ويتأدب بآدابه. وقد جعل الله

سبحانه الدنيا قرية، والإنسان رئيسها، والكل مشغول به،

ساعٍ في مصالحه، والكل قد أقيم في خدمته وحوأئجه:

فالملائكة الموكلون به يحفظونه، والملائكة الموكلون بالقطر

والنبات يسعون في رزقه ويعملون فيه. والملائكة الموكلون

بالوحي كجبريل ينزلون بالوحي من ربهم إليه والأفلاك

مسخرة منقادة دائرة بما فيه مصالحة. والشمس والقمر

والنجوم مسخرات جاريات بحساب أزمنته وأوقاته. والعالم

العلوي مسخر له برياحه وسحابه، يتنفس من هذا، ويشرب

من هذا. والعالم السفلي بسهولة وجباله، وبحاره وأنهاره،

ونباته وأشجاره، وحبوبه وثماره، كل ذلك مسخر له، مخلوق

لمصالحه: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا

وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (6) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا

رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى

لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ { (8) [ق: 6 - 8] .فسبحان الخلاق

العليم، الذي خلق البحار، وخلق ما فيها من الأسماك

والمخلوقات ما لا يعيش إلا فيه، ولو خرج عنه لمات. وخلق

البر، وخلق فيه من المخلوقات ما لا يعيش إلا فيه، ولو

دخل البحر لمات. وخلق الأرض، وخلق على ظهرها من

المخلوقات ما لا يعيش إلا ركباً عليها، ولو دخل في باطنها

لمات. وخلق في باطن الأرض من المخلوقات ما لا يعيش إلا

في باطنها، ولو خرج على ظهرها لمات. وخلق الأشجار

والنباتات، وحملها من الحبوب والثمار ما لا يحصيه ولا يعلمه

إلا الله، مختلف ألوانه، مختلف احجامه، مختلف طعمه،

مختلف ثماره. وخلق الإنسان، ومكنه من الكلام، وحمل

الكلمات والجمل من المعاني ما لا يحصيه ولا يعلمه إلا

الله: {ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ

وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} (102) [الأنعام: 102]. وهو

سبحانه الحي، الذي خلق الموت والحياة، خلق الحياة، وجعل

لكل جنس من خلقه نوعاً من الحياة: فللملائكة حياة ..

وللإنس حياة .. وللجن حياة .. وللنبات حياة، ولمن في

البحر حياة، ولمن في الأرض حياة .. ولأهل القبور حياة ..

ولأهل الجنة حياة .. ولأهل النار حياة. فسبحانه: {هُوَ

الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ

فَيَكُونُ} (68)[غافر:68]. وقد خلق الله المخلوقات

وجعل منها عالياً، وسافلاً، ومتوسطاً بينهما، فجعل لعاليتها

النور، وهو مسكن أهل النور من خلقه. وجعل لسافلها

الظلمة، وهي مسكن أهل الظلمات من خلقه. وجعل هذه

الأرض وما فوقها إلى العلو متوسطاً بينهما. وكل ما كان

أقرب إلى العرش والكرسي كان أعظم نوراً، ولهذا كان فضل

نور العرش والكرسي على ما تحته كفضل نور الشمس

والقمر على أخص الكواكب.

وكل ما كان أقرب إلى السفلي المطلق كان أشد ظلمة، ولهذا

لما كان محبس أهل الظلمات سجيناً كانت سوداء مظلمة،

لا نور فيها بوجه. فكل ما كان أقرب إلى الرب جل جلاله

كان أعظم نوراً ظاهراً وباطناً .. وكلما بعد عنه كان أشد

ظلمة بحسب بعده عنه .. ونسبة الأنوار كلها إلى نور الرب

كنسبة العلوم إلى علمه .. والقوى إلى قوته .. والغنى إلى

غناه. وما أعظم نور النار .. فكيف بنور البرق الذي يكاد

سناه يذهب بالأبصار .. فكيف بنور الشمس والقمر ..

فكيف بنور الحجاب .. فكيف بنور العرش والكرسي ..

فكيف بنور الخالق جل جلاله. والأمر أعظم من أن يصفه

واصف، أو يتصوره عاقل، فتبارك الله رب العالمين، الذي

أشرقت الظلمات بنور وجهه، وعجزت الأفكار عن إدراك

كنهه، وشهدت الفطر باستحالة شبهه: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ

الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا

شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ

عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ

لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ... { (35) [النور: 35].

وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ

كَشَفَهُ لَأُخْرِقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ

خَلْقِهِ» أخرجہ مسلم فسبحان ذي الجبروت والملكوت

والكبرياء والعظمة .. الخالق الذي خلق كل شيء .. المتفرد

بالخلق والإيجاد .. والتصريف والتدبير .. الذي له الخلق

والأمر .. فتبارك الله أحسن الخالقين. خلق السماء المرفوعة

وما فيها من المخلوقات العظام، وخلق الأرض الموضوعة وما

فيها من عجائب المخلوقات، وخلق سراجي العالم وهما

الشمس والقمر، وملاهما بنوره. وخلق نوعي النبات ما قام
منه على ساق، وما انبسط منه على وجه الأرض. وخلق ما
يخرج من الأرض من الحبوب والثمار، والمياه والمعادن والغاز.
وخلق سبحانه نوعي المكلفين، وهما الإنس والجن، والذكور
والإناث. وخلق نوعي المأكولات، من النبات والحيوان. وخلق
أنواع المشروبات من الماء العذب، والحليب السائغ، والعسل
الشهي. وخلق نوعي البحار، هذا عذب فرات، وهذا ملح
أجاج. وخلق لأوليائه دار كرامته، وهي الجنة دار السلام.
وخلق لأعدائه دار نقمته وإهانته، وهي النار دار العذاب.

وخلق هذه خلقاً .. ولتلك خلقاً، حتى إذا اكتمل سكان

هذه، وسكان هذه، انقطع النسل، ثم قامت القيامة، ثم

نقلهم بعد الحساب إلى دار القرار، في الجنة أو النار، حسب

أعمالهم: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ... } (8) [الزلزلة: 7، 8]. وهذا

الكون العظيم معرض هائل لآيات الله، وعجائب صنعته:

فالسماء التي نراها، والكواكب التي نشاهدها، والنجوم

المتحركة والثابتة، وما في السموات من المخلوقات، ومن

أصناف الملائكة آية من آيات الله. وفي هذه الأرض التي

نعيش عليها أحياء تسكن سطحها، وأحياء تسبح في
أجوائها، وأحياء تعيش في مائها، وأحياء تختبئ في مفاوزها
وكهوفها. وهي أشكال وألوان، وأمم وقبائل لا يحصيها إلا
الله وحده لا شريك له. وقد خلق الله لهذه الأحياء أقواتاً
جاهزة ميسرة في كل زمان، وفي كل مكان، لتلبي حاجات
هذه الأحياء التي لا يحصيها إلا الله الذي خلقها، وهي في
كل لحظة تزيد، وأرزاقها تزيد، ومنافعها تزيد، وبيوتها تزيد.
وهذه الأرض الممدودة، وهاد وبطاح، وسهول وجبال،
وأنهار ووديان، وبحار وبحيرات، وجنات وعيون وغدران،

وتراب وأحجار ومعادن، ولها أحوال، فمنها ما يجري، ومنها

ما يثمر، ومنها ما لا يحصي منافعه إلا الله. فسبحان: {الَّذِي

خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ

الْمَرْعَى (4) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى { (5) [الأعلى: 2 -

5]. والخلائق التي تعمر هذه الأرض من الأحياء نباتاً

وحيواناً، وإنساً وجناً، وطيراً وسمكاً، وزواحف وحشرات

وغيرها. هذه الخلائق لا يحصيها ولا يعلمها إلا الله وحده لا

شريك له. وكل خليفة منها أمة وشعوب وقبائل، لها أعمار

تأكلها، وبيوت تسكنها ثم تبيد. وكل فرد منها عجيبة: كل

إنسان .. وكل حيوان .. كل طائر .. كل زاحفة .. كل
 حشرة .. كل دودة .. كل نبتة .. كل شجرة .. لا بل كل
 جناح في يرقعة .. وكل ورقة في زهرة .. كل واحدة من تلك
 آية في خلقها .. وآية في شكلها .. وآية في منافعها. وكل
 ذلك نراه يومياً في المعرض الإلهي العجيب .. فهل من مدكر
 ..؟ وفي الأرض آيات وعجائب، وأشكال وألوان، وأمم
 ونعم لا يحصيها إلا الله العليم الخبير: {قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا
 يُؤْمِنُونَ} (101)[يونس: 101]. غير أنه لا يدرك هذه

العجائب، ولا يستمتع بالجولة في هذا المعرض الهائل إلا
القلب العاير بالإيمان واليقين: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ
لِّلْمُوقِنِينَ ... } (20) [الذاريات: 20]. فاليقين هو الذي
يحيي القلب فيرى ويدرك ويتأثر، وكثير من الناس يمرون
بالمعرض الإلهي المعروض بآياته ومخلوقاته مغمضي العيون،
لا يحسون فيه حياة، ولا يفقهون لغة، لأن نعمة اليقين لم
تسكن قلوبهم، فتراهم ينظرون ولا يبصرون، لأن العيون ترى
الأشكال، والقلوب ترى الحقائق، والعيون ترى الصور،
والقلوب ترى المصور: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى

الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } (46) [الحج: 46]. ومثل هذا

المعرض العظيم الواسع المفتوح معرض آخر مكنون فينا نحن

البشر، الذي انطوى فيه أسرار الوجود كله: { وَفِي أَنْفُسِكُمْ

أَفَلَا تُبْصِرُونَ ... } (21) [الذاريات: 21]. وهذان

المعرضان مفتوحان على الدوام .. لمن يريد أن يبصر

ويستبصر .. ولمن يريد أن يستيقن .. ولمن يريد أن يملأ

حياته بالمتعة والسرور .. ويروي قلبه بالإيمان واليقين ..

ويرى إبداع الحكيم العليم في الخلق والتصوير .. والتصريف

والتدبير: { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى } (26) [النازعات:

[26]. وهذه المخلوقات العظيمة التي خلقها الله، لا يحيط

الإنسان بعددها، فضلاً عن وصفها وذكر منافعها.

والأحياء التي خلقها الله قسمان: منها ما له بداية وليس له

نهاية: وهم بنو آدم، فإن بدايتهم معلومة، ونهايتهم الخلود

في الجنة أو النار، ومثلهم الجن، ومن شاء الله مما لا نعلمه.

ومنها ما له بداية وله نهاية وهو باقي المخلوقات التي يقال

لها يوم القيامة كوني تراباً. فهذا الخلاق العظيم .. وهذا خلقه

هذا خلق الله :

.. وهذه قدرته فقد كتب الله مقادير العباد قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة. كان الله ولم يكن شيءٌ غيره، وكان عرشه على الماء. مباشرةً بعد الانفجار العظيم، خلق الله السموات السبع والأرضين السبع في ستة أيام. يرى المفسِّرون أنَّ طول اليوم قد يكون ألف سنة، أو أنه بطول أيامنا الأرضية. مع نهاية اليوم الثاني اكتمل خلق الأرضين. ومع نهاية اليوم الرابع خلق الله رواسي من فوق الأرضين. ومع نهاية اليوم السادس اكتملت تسوية البناء السماوي الطبقي بعد أن استقرت طبقاته مكانياً وحرارياً. وبعد تمام خلق السموات والأرضين،

خُلقت المجرّات والنّجوم، وكرتتنا الأرضيّة. وأخرج الله ضحى السّماء بنور الشّمس. ثمّ دُحيت الأرض؛ فأخرج الله منها الماء والمرعى. ينسجم هذا التسلسل مع ما أثبتته العلم من عمر للكون، وللشمس، وللكرة الأرضيّة. في الوقت الذي يحاول علم الكون (Cosmology) وعلم الفلك (Astrophysics) أن يفسرا الكثير من المشاهدات، يتصور بعض العلماء أنه يلزمهم الإجابة عن بعض التساؤلات الفيزيائية الملحّة: من أين جاء الكون؟ متى بدأ وكيف؟ ماذا كان قبل بدء الكون؟ إنها مجموعه من الأسئلة لا تزال مدار البحث لدى علماء الكون. يلقي البحث ظلّالا على

بعض هذه الأسئلة ضمن منهج يوائم بين العلم والدين. ويأتي البحث استجابة لأوامر الله: (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض) [يونس 101] ، وقوله تعالى (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) [العنكبوت 20] . والخالق سبحانه وتعالى يؤكد مصداقية وعظمة هذا الكتاب حين يقول (تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى) [طه 4] كما يقول سبحانه: (قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض ...) [الفرقان 6] إن الله هو الخالق العليم بكل شيء (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات

والأرض) [البقرة 255] ، ويقول تعالى : (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض) [الحج 70] ، ويقول تعالى : (ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم ...) [الكهف 51] . ويقول تعالى : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكلّ شيءٍ عليم * هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام...) [الحديد 3-4] . ويقول تعالى : (بديع السماوات والأرض) [البقرة 117] . إذن تقتضي الحكمة أن نفيد من العلم الذي أطلعنا عليه الخالق سبحانه وتعالى . ولا بدّ من منهج الرّبط بين العلم والدين بعامة، وبين الدين وعلم الكون خاصّة. إن

هناك حاجة إلى لجان تضم حقول المعرفة كافة حتى تفهم القرآن الكريم، وتستطيع أن تدرك معاني آياته (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيءٍ وهدى ورحمةً) [النحل 89]. إنَّ القرآن كتاب هداية، وإنَّه ليعالج موضوعات كثيرة في فروع العلم؛ ممَّا يؤكد الحاجة إلى جهود أصحاب هذه المعارف حتى يتعمق إدراكنا وفهمنا لآيات القرآن. كما وأن أصحاب هذه العلوم بحاجة لدراسة القرآن كي ينطلقوا من الحقيقة القرآنية. وقبل الشروع في البحث، أرجو أن لا يغيب عن أذهاننا جميعاً أن نتيجة البحث تعبر عن فهم الباحث. هذا وإن القرآن الكريم وما صحَّح من كلام

الرّسول – صلّى الله عليه وسلم – هما الحقُّ، ولهما الصّحّة المطلقة. يقع البحث في خمسة مطالب. المطلب الأول: مبدأ الخلق والوجود قبل خلق السماوات والأرض، المطلب الثاني: الأرضون السّبع، المطلب الثالث: خلق الكون في ضوء النّصوص الشرعيّة والمعارف الكونية، المطلب الرّابع: طول أيّام الخلق بين النّصوص الشرعيّة والحقائق الكونيّة، المطلب الخامس توسع بناء السماء والأرض مستمرّاً إلى يوم القيامة. المطلب الأول : مبدأ الخلق والوجود قبل خلق السماوات والأرض فعن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: "دخلت على النّبي

– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَعَقَلْتُ نَاقَتِي
 بِالْبَابِ. فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ: اقْبَلُوا
 الْبَشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ. قَالُوا: قَدْ بَشَرْتَنَا فَأَعْطْنَا (
 مَرَّتَيْنِ). ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ:
 اقْبَلُوا الْبَشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ أَنْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو
 تَمِيمٍ. قَالُوا: قَدْ قَبَلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالُوا: جِئْنَا
 نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ. قَالَ كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ
 غَيْرَهُ. وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ. وَكُتِبَ فِي الذِّكْرِ
 كُلِّ شَيْءٍ. وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ. فَنَادَى مُنَادٍ:
 ذَهَبَتْ نَاقَتُكَ يَا ابْنَ الْحَصِينِ. فَانْطَلَقَتْ فَإِذَا هِيَ
 يَقْطَعُ دُونَهَا السَّرَابَ. فَوَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ
تَرَكْتُهَا" (1). وفيما يلي ألفاظ الحديث الصحيح

الذي يرويه

عبدالله بن عمرو (2): (كتب الله مقادير الخلائق ق

بل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة

. قال وعرشهُ على الماء. وفي روايةٍ : مثله . غ

ير أنّهما لم يذكر : وعرشهُ على الماء .)

(المحدث : مسلم - المصدر : صحيح

مسلم - الصفحة أو الرقم 2653 ، خلاصة حكم

المحدث : صحيح) (قدّر الله مقادير الخلائق قبل أن

يخلق السماوات

والأرض بخمسين ألف سنة وعرشهُ على الماء)

(المحدث : ابن القيم - المصدر : اجتماع الجيوش

الإسلامية - الصفحة أو الرقم 142 ، خلاصة حكم

**المحدث: ثابت) (قدَّرَ اللهُ المقاديرَ قبلَ أنْ يخلقَ ال
سماواتِ والأرضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) (المحدث :
محمد جار الله**

**السعدي - المصدر : النوافح العطرة- الصفحة أو
الرقم 224 ، خلاصة حكم المحدث: صحيح) (كتب
اللهُ تعالى مقاديرَ الخلائقِ قبلَ أنْ يخلقَ
السماواتِ والأرضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وعرشُهُ
على**

(الماء)

**'(المحدث : الألباني - المصدر : صحيح الجامع ال
صفحة أو الرقم 4474 ،**

**خلاصة حكم المحدث: صحيح) (قال مجاهد: (وكان
عرشه على الماء) قبل أن يخلق شيئاً، وقال "بدء**

الخلق العرش والماء والهواء (الفراغ)، وخلقت الأرض من الماء" (6-3). وقال قتادة: (وكان عرشه على الماء) ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض (6). وقال الطيبي: أشار بقوله (وكان عرشه على الماء) إلى أن الماء والعرش كانا مبدأ هذا العالم لكونهما خلقاً قبل خلق السموات والأرض (7)، ولم يكن تحت العرش إذ ذاك إلا الماء (8، 9). وقال ابن عباس إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه (6). قد وضّح الحديثان الشريفان السابقان حالة مبدأ الخلق والوجود قبل خلق السموات والأرض. وقد أورد العسقلاني في فتح الباري (9) قوله: "ووقع في الرواية التي

في التوحيد (ثمّ خلق السّماوات والأرض) ولم يقع
بلفظ "تمّ" إلّا في ذكر خلق السّماوات
والأرض. وفي رواية مسلم (إن الله قدّر مقادير
الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين
ألف سنة وكان عرشه على الماء) (2). وهذا يؤيدُ
رواية من روى (ثمّ خلق السّماوات والأرض)
باللفظ الدالّ على الترتيب ... أشار بقوله (وكان
عرشه على الماء) إلى أنّ الماء والعرش كانا مبدأ
هذا العالم لكونهما خلقا قبل خلق السّماوات
والأرض (7)، ولم يكن تحت العرش إذ ذاك إلّا
الماء (8، 9) ... والمراد بكان في الأوّل (كان الله)
الأزليّة وفي الثاني (كان عرشه) الحدوث بعد

العدم. وقد روى أحمد والترمذي وصححه من حديث أبي رزين العقيلي مرفوعاً (إنّ الماء خلق قبل العرش)، وروى السدي في تفسيره بأسانيد متعدّدة (إنّ الله لم يخلق شيئاً ممّا خلق قبل الماء) ... إنّ أوّليّة القلم بالنسبة إلى ما عدا الماء والعرش ... الخ". هذا ويبين الفرع الأوّل من المطلب الثالث حالة مبدأ الكون كما يتصوّر علماء الكون والفلك. المطلب الثاني: الأرضون السبع يقول سبحانه وتعالى: (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهنّ لتعلموا أنّ الله على كلّ شيء قدير) [الطلاق 12]. قرأ الجمهور (مثلهنّ) بالنصب

عظفاً على (سبع سموات) أو على تقدير فعل: أي
وخلق من الأرض مثلهنّ (إيجاز حذف: أي وخلق
سبعاً من الأرض) (10). وأورد القرطبي في
تفسيره الجامع (11): " (ومن الأرض مثلهنّ)
يعني سبعاً". هناك أحاديث يردُّ فيها ذكر الأرضين
بصيغة الجمع لا المفرد، ومن هذه النصوص: عن
عبيد الله بن مقسم أنّه نظر إلى عبد الله بن عمر
كيف يحكي رسولَ الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –
قال: (يأخذُ اللهُ عزَّ وجلَّ سمواته وأرضيه بيديه
فيقولُ: أنا اللهُ – ويقبضُ أصابعه ويبسطها- أنا
الملكُ) حتى نظرتُ إلى المنبر يتحرَّكُ من أسفل
شيءٍ منه حتى إنِّي لأقولُ: أساقطُ هو برسول الله

– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؟ (12).- عن عبيد الله بن مقسم عن عبدالله بن عمر قال رأيت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على المنبر وهو يقول: يأخذُ الجِبَّارُ عِزَّ وَجَلِّ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِيهِ بِيَدَيْهِ ثُمَّ ذَكَرَ نَحْوَ حَدِيثِ يَعْقُوبِ (13).- وعن عبدالله بن مسعودٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ فَيَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ فَضَحَكَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقاً لِقَوْلِ الْحَبْرِ ثُمَّ

قرأ رسولُ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - (وما
 قدرُوا اللهُ حقَّ قدره والأرضُ جميعاً قبضته يومَ
 القيامةِ والسَّمَوَاتُ مطويَّاتٌ بيمينه سبحانه وتعالى
 عمَّا يشركون) (14). وقد خُرجَ الحديثُ في عددٍ
 من مصادر السنَّة (15-19). يوكِّدُ الحديثُ أنَّ
 الأرضين غير الثُّرى؛ حيثُ أنَّ الثُّرى هو
 التراب. والظاهر أنَّ العبارة (تصديقاً لقول الحبر)
 هي من كلام الراوي. والدليل هو أنَّ الآية التي
 قرأها الرسول: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ
 جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ
 بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) كانت ردًّا
 على قول الحبر، وتبيِّن صورة مختلفة، وأكَّدت أنَّ

اليهود لم يقدرُوا اللهَ حقَّ قدره، وهي تنزّه الله عن
 شرك اليهود (ملحق). تبيّن الآية الكريمة
 (والأرضُ جميعاً قبضته يومَ القيامة) ما أكّده
 الأحاديث السابقة من أنّ حال الأرضين يوم
 القيامة هو القبض والطّي، والمراد
 بالأرض الأرضون السبع (20-27). وأنّ حالة
 القبض هذه لا تحصل إلا يوم القيامة (28). أمّا
 حالهنّ في الدنيا ففتق وبسط (حالة فتق الأرضين
 تبيّنها مجموعة الأشكال) (28، 29)؛ بعد أن كانتا
 رتقاً عند بداية الخلق (أولم ير الذين كفروا أنّ
 السمّواتِ والأرضَ كانتا رتقاً ففتقناهما
 [الأنبياء 30]. هناك أحاديث تحدّد عدد الأرضين

بسبع، ومن هذه الأحاديث:- روى البخاري عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم- : (من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقِّه خُسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين) (30).-وفي الصحيحين عن سعيد بن زيد -رضي الله عنه- قال: سمعتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (من ظلم من الأرض شيئاً طُوِّقَه من سبع أرضين) (31).-وروى الشيخان عن عائشة -رضي الله عنها- أنّ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (من ظلم قيدَ شبرٍ من الأرض طُوِّقَهُ من سبع أرضين) (32-40). " من اقتطع شبراً من الأرض ظلما طوقه الله إياه يوم

القيامة من سبع أرضين " - " لا يأخذ أحد شبراً
من الأرض بغير حقه إلا طوقه الله إلى سبع أرضين
يوم القيامة "

يتّضح من هذه النصوص ذكرُ الأرضين وهي
المقصودةُ في الحكم العامّ. والعدد كالوصف
لها. أي أنّ عاقبة ظلم الأرض _ أخذها بغير وجه
حقّ _ الخسف بمرتكبه يوم القيامة إلى الأرضين
التي هي سبع. وهذا ما تقوله اللّغة في أحكام
العدد (41). ويبين الحديثان السابقان أنّ حال
الأرضين يوم القيامة هو القبض في جهة السّفلى
(28)؛ ودليله (من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقه
خُسف به يوم القيامة إلى سبع

أرضين)(30).ومن هذا القبيل قوله سبحانه وتعالى: (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) [البقرة 29]. تشير الآية إلى أنّ حال الأرضين عند بداية خلقهنّ هو القبض والرتق في جهة السفّل. وهو ما تشير إليه الآية: (أولم ير الذين كفروا أنّ السّمّوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما) [الأنبياء 30]. أي كان الجميع متّصلاً بعضه ببعض في ابتداء الأمر.المطلب الثالث: خلق الكون في ضوء النصوص الشرعيّة والمعارف الكونيّة الفرع الأوّل: الكون الواسع المتوسّع وإشعاع الخلفيّة يرى علماء الكون صحّة نموذج الكون المتوسّع؛ فقد خلق الله الكون

واسعا ومتوسّعا (Inflationary)

(Universe) (42). وهذا يتفق مع الآية

الكريمة (والسّماء بنيناها بأيدينا وإنا لموسعون)

[الذّاريات 47]. يقول علماء التّفسير إنّ الله عزّ

وجلّ قد خلق السّماء واسعة (43-48). كما

ويقولون أنّ السّماء أخذت بالتّوسّع (49-60). ثمّ

استوى إلى السّماء وهي دُخانٌ فقال لها وللأرض

انّيا طوعا أو كرها قالتا اتّينا طائعين * فَقَضَاهُنَّ

سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ [فصلت - (والسّماء

بنيناها بأيدينا وإنا لموسعون * والأرض فرشناها

فَنِعَمَ الْمَاهِدُونَ) [47-48الذّاريات]. لقد كانت

السّماء واسعة عندما خلقها الله عزّ وجلّ ابتداءً؛

فلقد كان الكون يتوسّع بتسارع كبير
 (الشكل). وإنّ التوسّع في بناء السّماء دائم
 ومستمر حتى فناء الكون يوم القيامة. (أَنْتُمْ أَشَدُّ
 خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بِنَاهَا * رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا)
 [النّازعات 27-28]. يتصوّر علماء الكون أنّ
 التّوسّع نتيجةٌ لانفجار عظيم حدث لكتلة يزعم
 علماء الكون أنّها ذات كثافة عالية جداً (61). لا
 نريد أن نقول أكثر من هذا فيما يخصّ حالة
 الوجود قبل خلق السّماوات والأرض، لأنّ هذه
 المسألة خارج نطاق الطبيعة
 (metaphysics). وعليه يكون الاعتماد هنا
 على النصّ النّقلي فقط، ممّا يجعلني أرجح أنّ مادّة

الخلق هي الماء، وليست مادة أخرى ذات كثافة كبيرة جداً. وهذا ما قد يشير إليه الحديثان السابقان: (..كان الله ولم يكن شيء غيره. وكان عرشه على الماء ..) (1)، (إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء) (2). يرى علماء الكون أنّ إشعاع الخلفية الكوني عند درجة الحرارة ثلاثة كلفن (Three Degree cosmic Background radiation) (شكل) مؤشرٌ على أنّ درجة حرارة الكون كانت مرتفعة جداً عند بدء خلقه (62)؛ إذ هو إشعاع جسم أسود (blackbody radiation). كما وأنّ درجة

حرارة الكون قد انخفضت بسبب توسُّعه
(63). يشيرُ قوله تعالى (ثمَّ استوى إلى السَّماءِ
وهي دخان) [فصلت 11] إلى ارتفاع درجة
حرارة الكون خلال أيام خلقه المبكِّرة. ويدلُّ على
التَّوسُّع قوله تعالى: (والسَّماءِ بِنيناهِا بأيدِ وإنا
لموسِّعون) [الذَّاريات 47]. وممَّا يُوَكِّدُ كلاًّ من
التَّوسُّع والتَّبريد المصاحِبين لخلق الكون قوله
تعالى: (عأنتم أشدُّ خلقاً أم السَّماءِ بناها * رفع
سمكها فسوَّاهِا * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها)
[النَّازعات 27-29]. إنَّ التَّفسير الفلكي لظلمة
الليل (وأغطش ليلها) هو التَّوسُّع الَّذي ينتج عنه
تبرُّد الكون ومجانِبته لحالة الاتزان الحراري الثَّير

وديناميكي (60). ويمتاز الجسم الأسود بأنه باعث جيد للإشعاع (good emitter)، وهذا بعض مما تتضمنه الآية الكريمة: (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ) (الطارق آية 11)، على اعتبار أن السماء هنا هي البناء. وأحاول هنا أن أقول وبالله التوفيق: ليس بعيداً أن يكون بعض الماء -الذي كان عليه عرش الرحمن- هو مادة خلق الكون. لعل قول كلِّ من مجاهد وقتادة والطَّيِّبِي في تفسير العبارة الحديثية (وكان عرشه على الماء) يشير إلى أن الذي كان تحت العرش فينزلُ إليه أمرُ التَّدبير والتَّكوين منه هو الماء (7، 8، 64، 65)، والذي هو أصل جميع الأحياء

(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)

[الأنبياء 30]. لعلنا نجمال فنقول وبالله التوفيق:

في مادة مبدأ الخلق والوجود حدث الانفجار

العظيم، ليبدأ خلق الكون واسعاً ومتوسّعاً

(42، 60، 66). علا وسما بعض الإشعاع

والجسيمات الأولية للمادة (Radiation and)

(elementary particles)، وسُمّي هذا العلوّ

من مزيج الإشعاع والجسيمات الأولية سماء،

وهو ما تسمّيه كتب التفسير دخاناً (4، 67). في

اللحظات الأولى بعد الانفجار الكبير، كان الكون

شديد الحرارة وكثيفاً. لقد كانت درجة حرارة

الإشعاع T مرتفعة جداً. وبفعل الاندفاع الناجم

عن الانفجار يتوسّع الكون، فتتخفّض درجة الحرارة (61). فأصبحت الظروف ملائمة لتخلّق اللبّات الأساسية للمادة - الكواركات والإلكترونات. وهناك وبعد زمن وجيز (جزء من المليون من الثانية)، تجمّعت الكواركات لإنتاج البروتونات والنيوترونات. وفي غضون دقائق التحمت البروتونات والنيوترونات جنباً إلى جنب مشكلة بعض أنوية الذّرات.

وتكون المادّة والإشعاع مقرونين (Matter and radiation are coupled)؛ لهما نفس درجة الحرارة: يرتبط الإشعاع بالإلكترونات من خلال ما يعرف بـ Compton scattering ،

وترتبط الإلكترونات السالبة مع البروتونات الموجبة من خلال التجاذب الكهربائي. وينشأ عن التوسع والتبرّد خلق البناء السماوي الكرويّ الطبقيّ بسبب تجمع المادة وهي في حالة البلازما في مستويات مختلفة للطاقة (60). هذا إن كانت مادة بناء السماء هي مادة نيوكلونيّة (Nucleonic). ومع استمرار الكون في التوسع والتبريد، بدأت الأمور الهامّة تحدث ببطء كبير. لقد استغرق الأمر حوالي 380,000 سنة حتى تنخفض درجة الحرارة إلى أقلّ من 3000 كلفن ويبدأ التّمايز (Decoupling) بين الإشعاع والمادّة (68، 69). وعندها

احتجرت الإلكترونات في مدارات حول النواة، مما شكّل الذرات الأولى: الهيدروجين والهليوم ، والتي لا تزال حتى الآن العناصر الأكثر وفرة في الكون. وفي وقت لاحق يقدر بحوالي 1.6 مليون سنة، استطاعت قوّة الجاذبيّة أن تشكل النجوم والمجرات من سحب الغاز. وأمّا الذرات الأثقل مثل الكربون والأكسجين والحديد، فهي ومنذ ذلك الحين يتم إنتاجها في قلوب النجوم ذات الكتل الكبيرة، وهي تقذف في جميع أنحاء الكون من خلال الانفجارات النجمية السوبر نوبا (٠).الفرع الثاني: خلق السّماء والأرض في ضوء النّصوص الشرعيّة يقول تعالى: (هو الَّذِي خلق لكم ما في

الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهنَّ
سبع سموات وهو بكلّ شيءٍ عليم) [البقرة 29].
في اللحظة التي تلت الانفجار بدأ
أيضاً خلقُ الأرض (الأرض بمعنى جهة السفّل؛
أي الأرضين السّبع) (7). ويراد بجهة السفّل
الاتّجاه نحو مركز الكون، ويُقصدُ بجهة العلوّ
الاتّجاه نحو السّماء (شكل 2). وقد تباينت
الشّروحات التي قدّمها المفسّرون لهذه الآية
الكريمة بين الاختصار والإسهاب؛ هذا وإن كانت
أقوالهم تدور حول محورٍ واحدٍ: جاء في جامع
البيان عن تأويل آي القرآن (70) ما فحواه: "لما
أراد الله تعالى أن يخلق الخلق أخرج من الماء

دخاناً - أي الإشعاع والجسيمات الأولية -
 ... وخلق سبحانه وتعالى السماوات السبع
 والأرضين السبع (المادة المظلمة الباردة) من
 الماء ودخانه ... (ثم استوى إلى السماء):
 السماء تدلُّ على السماوات، فهي بمعنى الجمع
 ... إنهنَّ كنَّ سبعة غير مستويات فلذلك قال جلَّ
 ثناؤه: (فسواهنَّ): هياهنَّ ودبرهنَّ وقومهنَّ، ثمَّ
 دحا الأرض بعد ذلك". وقد أورد أبو حيان في
 تفسيره البحر المحيط في التفسير (71): "قيل:
 (جميعاً) حال مؤكدة من كلمة (ما)، ولا دلالة لها
 على الاجتماع الزماني، وهذا بخلاف معاً
 (72). وبما أنّ الآية تذكر جزيل نعمه سبحانه

ووفرتها، فإنهم لم يجعلوها حالاً من ضمير لكم
 لأنه لتعداد النعم دون المنعم عليه، ولنفس
 الاعتبار فإنهم لم يجعلوها حالاً من الأرض
 أيضاً". ونقول: لا مانع من كون جميعاً حالاً من
 كلمة (ما). ويرادُ بما في الأرض أجزاءها المركبة
 منها. أي خلق لكم ما في الأرض من أجزاء
 مجتمعة. هذا وإن الناظر إلى الآية السابقة من
 السورة ذاتها (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً
 فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون)
 [البقرة 28] يلاحظ أن السياق القرآني يستعرض
 الخلق والإحياء والإماتة والبعث بالإضافة لذكره
 جزيل نعمه سبحانه ووفرتها. وعليه — والله

تعالى أعلم- فإن جميعاً قد تُعتبر حالاً من الأرض أيضاً. ويدلُّ على ذلك قوله جلَّ وعلا: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) [الأنبياء 30]. (رتقاً) أي كان الجميع متصلاً بعضه ببعض متلاصقاً مترامكماً بعضه فوق بعضٍ في ابتداء الأمر (65، 68، 73). وأقول: إنَّ السماوات والأرض كانتا رتقاً في بداية خلقهما، ثم فتقت السماء الدخانية في مستويات مختلفة للطاقة، لتشكل أصلاً لخلق طبقات البناء السماوي (60، 74)، كما أنَّ الأرض (المادة المظلمة الباردة : شكل) فتقت

سبعاً (28، 74، 75). حالة فتق الأرضين تبينها مجموعة الأشكال التي يمكنك مشاهدتها. إذن ليس هناك ما يمنع أن تكون كلمة (جميعاً) حالاً من الأرض، بل لعلها كذلك. وإنكلمة (جميعاً) في الآية قد تُعتبر حالاً من ما؛ وعندها يكون الخلق الذي تتحدث عنه الآية: (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) هو خلقُ الله سبحانه وتعالى- وإيجاده للمادة الأولية في الأرض (بمعنى جهة السفّل؛ أي الأرضين السّبع - المادة المظلمة الباردة -) عندما كانت الأرض رتقاً، وهذه المادة ضروريّة لمراحل الخلق التي جاءت متأخرة. وسيُتّضح لاحقاً أنّه في حالة الرّتق لم

يكن الماء أو الزّرع أو الحيوان أو الإنسان مخلوقاً بعد. بل إنّ مجرّتنا ومجموعتنا الشّمسيّة وكرتنا الأرضيّة لم يكن شيءٌ منها مخلوقاً آنذاك. وأخال الزّمخشري في تفسيره الكشّاف لا يخالف هذا لقوله: "فإن قلت: هل لقول من زعم أنّ المعنى بث خلق لكم الأرض وما فيها وجه صحّة؟ قلت: إن أراد بالأرض الجهات السّفليّة دون الغبراء (76) كما تذكر السّماء وتراد الجهات العلويّة جاز ذلك، فإنّ الغبراء وما فيها واقعة في الجهات السّفليّة (77)". وهو عين ما قاله كثيرٌ من أئمّة التّفسير (78-80). ويتابع أبو حيّان — رحمه الله — فيقول: "ففتق هذه من هذه فجعل السماوات

سبعاً، والأرض سبعاً (مجموعة الأشكال)،
 وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء (11) " (81).
 ويؤكد أبو حيان أنّ الأرض كانت رتقاً ثمّ
 فتقت، وبالتالي فهذا حُجَّةٌ عليه حين يقول: فإنّهم
 لم يجعلوها -جميعاً- حالاً من الأرض. ويورد قول
 ابن عباس: "فتق السماء بالماء فأمطرت
 السماء، وفتق الأرض بالنبات فأنبتت الأرض" (65).
 ويرى الباحث أنّ هذا البعد الأخير للفتق
 ليس هو عكس مدلول الرتق من كون الجميع
 متّصلاً بعضه ببعض متلاصقاً مترامياً بعضه فوق
 بعض، إلاّ أن يراد أنّ خروج النبات من كرتنا
 الأرضية سبب تفتت قشرتها. وأنّ السحاب -

السَّمَاءُ هُنَا بِمَعْنَى السَّحَابِ- كَانَ فِي حَالَةِ الرَّتْقِ
بِسَبَبِ ارْتِفَاعِ الْحَرَارَةِ، وَمَعَ التَّبَرُّدِ تَكَثَّفَ فِي
غُيُومٍ فَانْفَتَقَ عَنْهَا الْمَاءُ. وَيَتَصَوَّرُ بَعْضُ
الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ مَاهِيَّةَ الْخَلْقِ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْهَا الْآيَةُ
الْكَرِيمَةُ (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا)
هِيَ تَقْدِيرُ خَلْقِ الْأَشْيَاءِ لِأَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ لَمْ تَخْلُقْ
كُلُّهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَذَلِكَ أَنَّ كَلًّا مِنَ الْحَيَاتَيْنِ
النَّبَاتِيَّةِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ تَحْتَاجُ إِلَى مَقَوِّمَاتٍ: مِنْ خَلْقِ
لِلشَّمْسِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى كَوْنِ كُرَةِ الْأَرْضِ مَدْحُوَّةً
مَمْهَدَةً لِإِنْبَاتِ الزَّرْعِ وَلِحَيَاةِ الْحَيَوَانَ. يَرَى
الْبَاحِثُ أَنَّ الْمُفَسِّرِينَ رَبَّمَا لَجَأُوا إِلَى هَذَا الْقَوْلِ
بِسَبَبِ عَدَمِ مَعْرِفَتِهِمُ الْمَعْنَى الدَّقِيقَةَ لِلْعِبَارَةِ

القرآنيّة (الأرض جميعاً). هذا ويوافقهم الباحث
الرّأي من أنّ دحو كرتنا الأرضيّة جاء
متأخراً. فلقد كان بعد انقضاء أيّام الخلق السّنة،
وبعد تمام تسوية بناء السماء، ومتأخراً عن
إخراج ضحى السّماء بنور الشّمس
(82-90). ودليل ذلك قوله تعالى: (عأنتم أشدُّ
خلقاً أم السماء بناها * رفع سمكها
فسوّاها * وأغطش ليّليها وأخرج
ضحاهها * والأرض بعد ذلك دحاهها * أخرج منها
مآءها ومرعها) [النّازعات 27-31]. وعليه
يمكن الإضافة إلى قولهم بتقدير خلق الأشياء، أنّ
المقصود من الآية هو كذلك الخلق للمادّة الأوّليّة

في الأرض جميعاً (أي في الأرضين السبع
مجتمعة) (76-80). وذلك أنّ تقدير مقادير
الخلق قد سبق خلق السماوات والأرض بدليل
الأحاديث التي سبقت الإشارة إليها (1، 2). ففي
رواية مسلم (إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن
يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة
وكان عرشه على الماء) (2). وفي حديث
آخر: (فرغ الله من المقادير وأمور الدنيا قبل أن
يخلق السموات والأرض وعرشه على الماء
بخمسين ألف سنة) (الراوي: عبدالله بن عمرو
بن العاص المحدث: ابن تيمية - المصدر: بغية
المرتاد - الصفحة أو الرقم: 294، خلاصة حكم

المحدث: صحيح). وعليه يكون الخلق هو للمادة
الأوليّة في الأرضين السّبع مجتمعة، أمّا كوكب
الأرض فلم يكن مخلوقاً آنذاك. وفي معرض تفسير
الآية: (ثمّ استوى إلى السّماء وهي دخان)
[فصلت 11]، ذكر أبو حيّان (72): "والعطف ب
(ثمّ) يقتضي التّراخي في الزّمان، ولا زمان إذ
ذاك". وأقول لا بدّ من الوقوف على عبارته "ولا
زمان إذ ذاك". ففي الحديث: (إن الله قدّر مقادير
الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين
ألف سنة وكان عرشه على الماء) (1- 3، 9). إنّ
هذا الحديث يؤكّد أنّ للزمان والمكان وجودهما
قبل خلق السّماوات والأرض، لكنّ بعض وحدات

الزّمان التي نعرفها الآن من اليوم والليّلة والشّهر والسّنة لم تكن مخلوقةً آنذاك؛ إذ هي ناجمةٌ عن حركتي الأرض والقمر في مقابل الشّمس. ولعلّ هذا الذي أراد أن يؤكّده أبو حيّان بعبارته "ولا زمان إذ ذاك". وكذلك فإنّه لا يجوزُ فيزيائياً الحديث عن أحداث في الكون من دون مفهوم المكان والزّمان (91). ولا يرى الباحث أنّ أبا حيّان يقصد أنّ الله - سبحانه وتعالى - يخلق في لحظة (إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) [يس 82]. فإنّ الحكمة والمشية الرّبانيّة اقتضت أن يستغرق خلق السّماوات والأرض وعاءَ زمنيّاً (وهو الذي خلق السّماوات

والأرض في ستة أيام) [هود 7]. والحكم كثيرة:
 فمنها تبرّد الكون (92)، ورتابة وتسوية بناء
السماء (60)، ومنها تعليم العباد الرفق والتثبت
 في الأمور، ولأنّ لكلّ شيءٍ عنده أجلاً
 (93). ويتابع أبو حيان قوله (94): "قيل أشار ب
 (ثمّ) إلى التفاوت الحاصل بين خلق السّماء
 والأرض في القدر - أي أنّها تفيد التراخي الرّتبى -
 . وقيل: لما كان بين خلق الأرض والسّماء أعمالٌ
 من جعل الرّواسي، والبركة فيها، وتقدير الأقوات
 (في يومين آخرين)، عطف ب (ثمّ)؛ إذ بين خلق
 الأرض والاستواء تراخٍ يدلُّ على ذلك"
 (95). إنّ قول أبي حيان هذا بحاجةٍ إلى

توضيح. إنَّ جعل الرّواسي (بمعنى خلق الجبال) متأخراً كثيراً عن خلق السّماوات السّبع والأرضين السّبع. لذا فالآية هنا تتحدّث عن الأرض بمعنى جهة السّفّل؛ أي الأرضين السّبع، وليس المقصود منها كرة الأرض التي نعيش عليها. وعليه فالمراد بالرّواسي هنا هو المادّة الكونيّة التي بدأت تتشكل في الجزء العلوي من الأرضين السّبع. أمّا إذا فسّرنا الرّواسي بالجبال، فهنا لا مفرّ من القول بالتّقدير؛ لأنّ كرة الأرض لم تكن قد خُلقت. وتمهيداً بين يدي قوله سبحانه: (ثمّ استوى إلى السّماء فسوّاهنّ سبع سموات) [البقرة 29]، أقول: إنّ للتراخي الزّماني

ضرورته: فمنها كي يكون الزمن كافياً لتوسّع الكون؛ وبالتالي انخفاض درجة حرارته، ومن ثم تكاثف وتبرّد وتماسك لطبقات البناء السماوي في اليومين الأخيرين من أيام الخلق الستّة (60، 92). ويتابع أبو حيان قوله (96): إنّ الضمير في (فسوّاهنّ) عائِدٌ على السّماء على أنّها جمعُ سماء، أو على أنّه اسم جنسٍ فيصدّق إطلاقه على الفرد والجمع، ويكون مراداً به هنا الجمع... وظاهر القول أنّ الذي استوى إليه هو بعينه المستوي سبع سموات؛ ذوات حُبُكٍ وحُسْنٍ واستواء. وقد أعرب بعضهم سبع سموات بدلاً من الضّمير على أنّ الضمير عائِدٌ على ما قبله،

وهو إعرابٌ صحيحٌ، نحو: أخوك مررتُ به زيدٌ،
وأجازوا في سبع سموات أن يكون منصوباً على
المفعول به، والتقدير فسوى منهن سبع سموات،
وهذا ليس بجيد من حيث اللفظ، ومن حيث
المعنى. أمّا من حيث اللفظ، فإنّ سوى ليس من
باب اختار، فيجوز حذف حرف الجرّ منه في
فصيح الكلام، وأمّا من حيث المعنى فلأنّه يدلُّ
على أنّ السّموات كثيرة (أي تزيد على السّبع)،
فسوى منهنّ سبعاً، والأمرُ ليس كذلك، إذ المعلومُ
أنّ السموات سبعٌ. وأجازوا أيضاً أن يكون مفعولاً
ثانياً لسوى، ويكون معنى سوى: صير، وهذا
ليس بجيد، لأنّ تعدّي سوى لواحدٍ هو المعلومُ في

اللُّغَةُ؛ (فَسَوَّاءُكَ فَعْدَلُكَ) [الانفطار 7]، (بِلا قَادِرِينَ
 عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بِنَانَهُ) [القيامة 4]. وَأَمَّا جَعْلُهَا
 بِمَعْنَى صَيَّرَ، فَغَيْرُ مَعْرُوفٍ فِي اللُّغَةِ (97). إِنَّ
 غَالِبِيَّةَ آرَاءِ الْمَفْسِّرِينَ تُوَكِّدُ مَعْنَى التَّسْوِيَةِ الَّتِي
 أَشَارَ إِلَيْهَا أَبُو حَيَّانٍ (98-103). وَأَضَافَ بَعْضُ
 الْمَفْسِّرِينَ (104-105) أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى
 (فَسَوَّاهُنَّ): أَيِ فَصَيَّرَهُنَّ، كَمَا فِي آيَةٍ أُخْرَى
 (فَقَضَاهُنَّ) [فصلت 12]. إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى
 (فَقَضَاهُنَّ): أَيِ صَنَعَهُنَّ وَأَظْهَرَهُنَّ وَأَوْجَدَهُنَّ
 وَصَيَّرَهُنَّ وَأَحْكَمَهُنَّ وَفَرَّغَ مِنْ خَلْقِهِنَّ سَبْعاً
 (106-114). وَعَلَيْهِ يَرَى الْبَاحِثُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى:
 (فَقَضَاهُنَّ) لَيْسَ بِمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى

(فسواهنَّ). والشَّاهدُ أنَّ قوله تعالى: (عَأْنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بِنَاهَا* رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا) [النازعات 27-28] يدلُّ على أنَّ التَّسويةَ قد أعقبت الخلقَ وهي غيره. بعد هذه المقدِّمات، نقول وبالله التَّوفيق: إنَّ القولَ الراجح للمفسِّرين في الآية الكريمة (فسواهنَّ سبع سموات) [البقرة 29] أنَّ التَّسويةَ تعني إحكامهنَّ وتعديل خلقهنَّ وتقويمه وإخلاءه من العوج والفظور، وإتمام خلقهنَّ وتكميله، وجعلهنَّ سواء، بمعنى تسوية سطوحهنَّ بالإملاس؛ فليس فيهنَّ مرتفع ولا منخفض. فقد أتمَّهنَّ سبحانه واتفقن إنشاءهنَّ (94، 98، 115). وفي تفسير

قوله تعالى: (رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا)، يقول الفخر الرازي (116): "أنّ هذا يدلُّ على كون السَّماء كرة، لأنّه لو لم يكن كرة لكان بعض جوانبه سطحاً، والبعض زاوية، والبعض خطّاً، ولكان بعض أجزائه أقرب إلينا، والبعض أبعد، فلا تكون التّسوية الحقيقيّة حاصلة، فوجب أن يكون كرة حتّى تكون التّسوية الحقيقيّة حاصلة". وتعقيباً على كلامه هذا، فإنّني أوكد أنّ السَّماء محيطة بالأرض، بل لعلّها قشرة كرويّة (Spherical shell) كما أشار الرازي (شكل). إلا أنّ مجرّتنا قريبة جداً من بناء السماء، وبعيدة جداً عن مركز الكون (28، 60، 117، 118) (شكل 2). لذا لا

يوجد تعارضٌ بين كون السّماء قشرةً كرويةً مستوية، وبين كون بعض أجزائها أقرب إلينا من بعضها الآخر. إنّ إشعاع الخلفية الكوني يؤكّد أنّ السّماء الدّنيا قشرةً كرويةً نصف قطرها 13 بليون سنة ضوئية (119). ولعلّ البناء السّماوي (شكل: مرجع 120) هو مصدر إشعاع الخلفية الكوني الميكروي (شكل ، شكل) الذي يمتلك في جميع المناحي والاتّجاهات درجة الحرارة (121).

ومما يشير إلى هذا التسلسل في الخلق $2.725 \pm 0.001K$ وبشكل واضح قوله تعالى: (قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا

ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ
فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ
سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ
دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا
أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ
وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَّمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا
بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ
[فصلت 9-12]. لعلَّ المراد بالأرض ما في جهة
السّفْل (أي الأرضين السّبع: المادة المظلمة
الباردة). أمّا الكرة الأرضيّة فربّما كان قد خُلِقَ
أصلها ومادّتها (123). وقالوا أريد باليومين هنا
فترتين زمنيّتين (123-124). وذكروا أنّ

الرّواسي هي الجبال، وقيل المراد بجعلها إبداعها بالفعل، وفي الإرشاد المراد تقدير الجعل لا الجعل بالفعل (125). يوكّد علم الكون أنّ القول بإبداعها بالفعل غير صحيح، فإنّ خلق كرة الأرض نفسها قد جاء متأخراً عن خلق السّماء. إنّ القول بإيجاد الرّواسي يُفسّرُ بغير الجبال. ويتفقّ هذا مع ما ذكره أبو حيان في البحر المحيط من أنّ دحو الأرض غير خلقها، وقد تأخر عن خلق السّماء. وأنّ جعل الرّواسي (الجبال) والبركة في الأرض، وتقدير الأقوات لا يمكن إدخالها في الوجود إلّا بعد أن صارت الأرض موجودة (126). وإنّ تقدير الخلق قد سبق

الخلق بخمسين ألف سنة (1، 2، 3، 9). لذا يرى الباحث أن قوله سبحانه (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا) قد يشير إلى إحداث عدم تجانس في مادة الأرضين والتي هي مادة مظلمة (Dark matter) أو لربما هو إشارة إلى بداية خلق مادة عادية بدأت تتشكل وتتكون وترسو في الجزء العلوي من الأرض (الأرض بمعنى جهة السفّل). أي المادة التي بدأت تتشكل في أعالي الأرضين السبع (شكل 2) ؛ أي في الأماكن الأقرب إلى الحيز الداخلي للبناء السماوي الأوّل (28، 60، 127). وهذه المادة هي أساس البناء في الأرض العليا بعد فتح الأرضين (28). وربما

تجسّد هذا حالياً كتغايير طفيف في درجة حرارة إشعاع الخلفيّة الكوني (شكل). ويراد بالأرض العليا (الأولى) تلك التي تحتضن مجرّة درب التّبانه (شكل 2)؛ التي توجد فيها مجموعتنا الشمسيّة (28). ودليل هذا الفهم قول سبحانه: (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا). وقد اختار بعضهم أنّ خلق السّماء مقدّم على خلق الأرض، وأنّ الخلق في الآية تقدير وقضاء الله أن يخلق كرة الأرض (76) في يومين، ولا يرادُ به التّكوين والإيجاد. وهذا نظير قوله سبحانه (إِنَّ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) [آل عمران 59]، ومحالٌّ أن يقال

للشيء الذي وجد كن، بل الخلق عبارة عن التقدير (128، 129). وقوله تعالى: (وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا): أي بيّن خصائص الأرض وقدر أرزاق ساكنيها ومعايشهم من الجبال والأنهار والمياه والأشجار... وقوله (فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ) أي كلُّ ذلك من خلق الأرض (جهة السفّل؛ أي الأرضين السبع) وتقدير خلق كرتنا الأرضيّة وما تبعه من تقدير إحلال البركة وتقدير الأقوات كائنٌ في تمام أربعة أيّام- باليومين المتقدّمين- كاملة مستوية لا زيادة فيها ولا نقصان (130). وقوله سبحانه (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ) أي استوى إلى مادّة البناء

السّماوي وهي في حالة الدّخان (Coupled matter and radiation). وقوله تعالى (فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا) أي إتيان ما فيهما ممّا ذكر من المنافع، وقيل بيان كيفية التكوين إثر بيان كيفية التقدير. (طَوْعًا أَوْ كَرْهًا) تمثيلاً لتحتم تأثير قدرته تعالى فيهما واستحالة امتناعهما من ذلك. (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) أي منقادين كما أمرا على مقتضى الحكمة البالغة. (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ) أتقن أمر السّماوات حسبما تفتضيه الحكمة البالغة من جعلهنّ سقفاً مسوّىً محفوظاً مقبباً في يومين. وهنا تكون أيام الخلق السّنة قد اكتملت وانتهت. ويقول سبحانه:

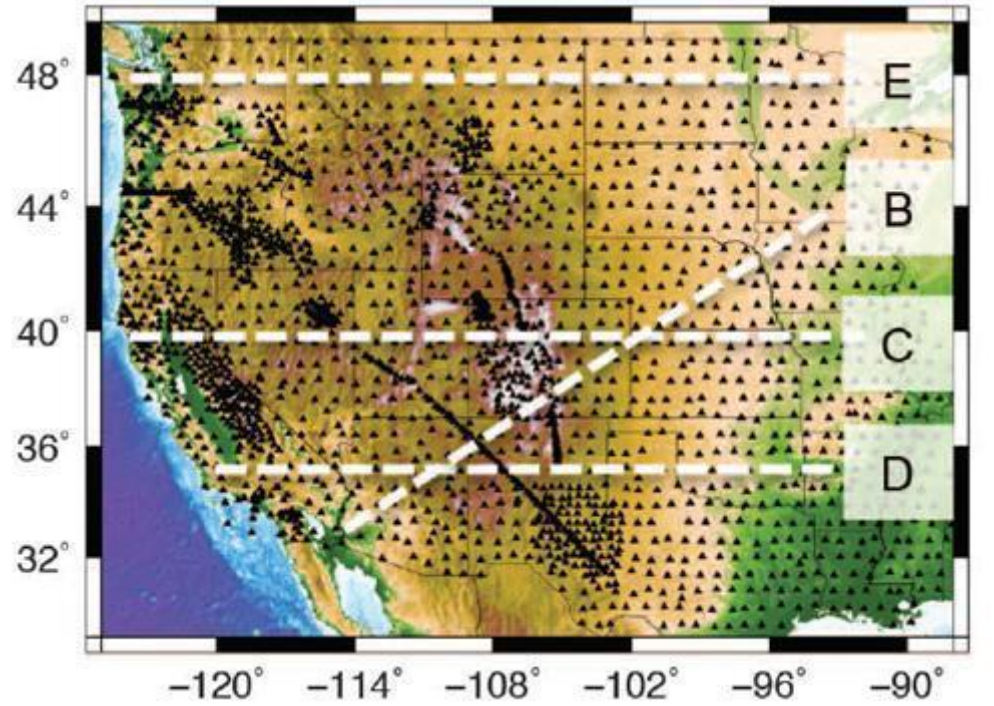
(وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا) وبعد انتهاء الأيام الستة لخلق السماوات والأرض، خلق في كل سماء منها ما استعدت له من الأمور التي هي قوامها وصلاحها، واقتضت الحكمة أن يكون فيها من الملائكة. وأودُّ الإشارة هنا إلى أنه بعد انتهاء الأيام الستة لخلق السماوات السبع والأرضين السبع قد جاء متأخراً خلق المجرات والنجوم، ومن ثمَّ الشمس وكرتتا الأرضية (وزيَّنا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا). وبعد خلق الشمس أخذت كرة الأرض شكلها البيضوي ودحيت وجعلت مهاداً وقراراً لأهلها (ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ

لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ
 دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالجِبَالَ
 أَرْسَاهَا [النازعات 27-32]. ودحو الأرض
 بمعنى كرتنا الأرضية، أو بمعنى الأرض العليا
 كون مجرتنا جزءاً من الأرض العليا (28) مفسرٌ
 بقوله تعالى: (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا
 وَمَرْعَاهَا). ويقول الألويسي مؤكداً هذا الفهم:
 "وأما تقدير أقوات الأرض وإعطاء البركة وتوليد
 المتولّدات، فلها أيامٌ معدودات وحدودٌ محدودات
 لا تدخل في أيام خلق السمّوات والأرض"
 (131). ويتناغم اكتشافٌ جديد مع الآية: (أَخْرَجَ
 مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا). اكتشاف خزان مياه ضخمة

غائر في الأرض وقد تم اكتشاف خزان من الماء حجمه ثلاث مرات ضعف حجم كل المحيطات. ويقع هذا الماء غائراً تحت سطح الأرض في أمريكا الشماليّة. وهذا الاكتشاف يمكن أن يساعد على تفسير مصدر تقبع هذه المياه داخل صخرة زرقاء تدعى ringwoodite تتواجد على عمق سبعمائة كيلومتر من سطح الأرض؛ أي في لحاء الأرض وهو طبقة الصخور الساخنة بين سطح الأرض و قلبها. ضخام حجم هذا الخزان يلقي ضوءاً جديداً على أصل مياه الأرض . بعض علماء الجيولوجيا يعتقدون أنّ المياه وصلت الأرض من المذنبات التي ضربت كوكب الأرض،

ولكنّ هذا الاكتشاف الجديد يدعم فكرة بديلة وهي أنّ المحيطات رشحت تدريجياً من المناطق الداخلية للأرض في وقت مبكر : (والأرض بعد ذلك دحّاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا) (النّازعات 30-31). إنّ هذا الاكتشاف دليل جيد على أنّ مياه الأرض جاءت من داخلها؛ كما يقول ستيفن جاكوبسن من جامعة نورث وسترن في إيفانستون، إلينوي. إنّ المياه الغائرة هذه يمكن أن تعمل أيضاً كعازل لمحيطات الأرض؛ ممّا يوضّح سرّاً بقاء نفس كمّيّة مياه المحيطات لملايين السنين لم يكن ليتبخّر الماء من على الأرض عندما كان الكوكب سخوراً منصهرة؛

وذلك بفضل أن الصخور نفسها تتصرف كما الإسفنجة. لذلك كان الماء دائما هنا؛ ولم يأت إلى الأرض من المذنبات-



ما فعله فريق العلماء هو دراسة سرعة الانتشار لحوالي 400 زلزال في المناطق المبيّنة بالمثلثات في الصورة أعلاه. عندما تضرب

الموجة الزلزالية الماء تقلّ سرعتها. وهذه هي الطريقة التي تمّ بواسطتها رسم خريطة توضّح تواجد المياه على عمق 700 كيلومتر تحت سطح الأرض (في الشكل التالي يوضّح اللون الأزرق أماكن تواجد المياه) الفرع الثالث: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ماذا لو تواجدت كلّ المياه على عمق 700 كيلومتر تحت سطح الأرض؟ (أو يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلْبًا) (الكهف 41) " وَقَوْلُهُ : " أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا " أَي غَائِرًا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ ضِدُّ النَّابِعِ الَّذِي يَطْلُبُ وَجْهَ الْأَرْضِ فَالْغَائِرِ يَطْلُبُ أَسْفَلَهَا كَمَا قَالَ

تَعَالَى : " قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ
 يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ " أَي جَارٍ وَسَائِجٍ وَقَالَ هَاهُنَا
 " أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا
 " وَالغَوْرُ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى غَائِرٍ وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْهُ كَمَا
 قَالَ الشَّاعِرُ عَمْرُو بْنُ كَلْتُومٍ : تَظَلَّ جِيَادُهُ نَوْحًا
 عَلَيْهِ مُقَلَّدَةً أَعْنَتَهَا صُفُونًا آخِرٌ : هَرِيقِي مِنْ
 دُمُوعِهِمَا سِجَامًا ضُبَاعٍ وَجَاوِبٍ يَنْوَحَا بِمَعْنَى
 نَائِحَاتٍ عَلَيْهِ (ابن كثير، الطبري). أَي غَائِرًا
 ذَاهِبًا ، فَتَكُونُ أَعْدَمُ أَرْضٍ لِلْمَاءِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ
 أَوْجَدَ أَرْضٍ لِلْمَاءِ . وَالغَوْرُ مَصْدَرٌ وَضِعَ مَوْضِعَ
 الْإِسْمِ ؛ كَمَا يُقَالُ : رَجُلٌ صَوْمٌ وَفِطْرٌ وَعَدْلٌ وَرِضَا
 وَفَضْلٌ وَزَوْرٌ وَنِسَاءٌ نَوْحٌ ؛ وَيَسْتَوِي فِيهِ الْمَذَكَّرُ

وَالْمَوْنَتِ وَالنَّشِيَّةِ وَالْجَمْعِ . وَقِيلَ : أَوْ يُصْبِحُ
 مَاوُهَاذَا غُورٌ ; فَحَذَفَ الْمُضَافُ ; مِثْلُ " وَاسْأَلْ
 الْقَرْيَةَ " [يُوسُفُ : 82] ذَكَرَهُ النَّحَّاسُ . وَقَالَ
 الْكِسَائِيُّ : مَاءٌ غُورٌ . وَقَدْ غَارَ الْمَاءُ يَغُورُ غُورًا
 وَغُورًا , أَيُّ سَفُلَ فِي الْأَرْضِ , وَيَجُوزُ الْهَمْزَةُ
 لِانْضِمَامِ الْوَاوِ . وَغَارَتْ عَيْنُهُ تَغُورُ غُورًا وَغُورًا
 ; دَخَلَتْ فِي الرَّأْسِ . وَغَارَتْ تَغَارُ لُغَةً فِيهِ . وَقَالَ
 : أَغَارَتْ عَيْنُهُ أَمْ لَمْ تَغَارًا وَغَارَتْ الشَّمْسُ تَغُورُ
 غِيَارًا , أَيُّ غَرَبَتْ . قَالَ أَبُو ذُوَيْبٍ : هَلْ الدَّهْرُ إِلَّا
 لَيْلَةٌ وَنَهَارُهَا وَإِلَّا طُلُوعُ الشَّمْسِ ثُمَّ غِيَارُهَا . (أَوْ
 يُصْبِحُ مَاوُهَاذَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا) . أَيُّ لَنْ
تَسْتَطِيعَ رَدَّ الْمَاءِ الْغَائِرِ , وَلَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ بِحِيلَةٍ .

(القرطبي). وَقَوْلُهُ: { فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا }

يَقُولُ : فَلَنْ تُطِيقَ أَنْ تُدْرِكَ الْمَاءَ الَّذِي كَانَ فِي

جَنَّتِكَ بَعْدَ غُورِهِ، بِطَلَبِكَ إِيَّاهُ . (الطبري). (قُلْ

أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاوُكُمْ غُورًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ

مَعِينٍ) (الملك 30). ثُمَّ قَالَ تَعَالَى إِظْهَارًا لِلرَّحْمَةِ

فِي خَلْقِهِ " قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاوُكُمْ غُورًا " أَيُّ

ذَاهِبًا فِي الْأَرْضِ إِلَى أَسْفَلٍ فَلَا يُنَالُ بِالْفُؤُوسِ

الْحِدَادِ وَلَا السَّوَادِ الشِّدَادِ وَالْغَائِرِ عَكْسَ النَّابِيعِ

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى " فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ " أَيُّ

نَابِيعٍ سَائِحٍ جَارٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَيُّ لَا يَقْدِرُ عَلَى

ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَمِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ أَنْ أَنْبَعَ

لَكُمْ الْمِيَاهَ وَأَجْرَاهَا فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ بِحَسَبِ

مَا يَحْتَاجُ الْعِبَادَ إِلَيْهِ مِنْ الْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ
وَالْمِنَّةُ آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُلْكِ وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ
. (ابن كثير) وفي تفسير الطبري: { إِنْ أَصْبَحَ
مَاؤُكُمْ غُورًا } يَقُولُ : غَائِرًا لَا تَنَالُهُ الدِّلَاءُ { فَمَنْ
يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ } يَقُولُ : فَمَنْ يَجِيئُكُمْ بِمَاءٍ
مَعِينٍ , يَعْنِي بِالْمَعِينِ : الَّذِي تَرَاهُ الْعُيُونُ طَاهِرًا
... , عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ , قَوْلُهُ : { فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ
مَعِينٍ } يَقُولُ : بِمَاءٍ عَذْبٍ . وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ
فِي قَوْلِهِ : { إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غُورًا } لَا تَنَالُهُ
الدِّلَاءُ { فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ } , وَعَنْ قَتَادَةَ ,
قَوْلُهُ : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غُورًا } : أَيُّ
ذَاهِبًا { فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ } قَالَ : الْمَاءُ

الْمَعِينِ : الْجَارِي . وَعَنِ الضَّحَّاكِ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ
{ مَاؤُكُمْ غَوْرًا } ذَاهِبًا { فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينِ
{ جَارٍ . (الطبري) وفي تفسير القرطبي: يَا مَعْشَرَ
قُرَيْشٍ (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ
يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ) : أَي غَائِرًا ذَاهِبًا فِي
الْأَرْضِ لَا تَنَالُهُ الدَّلَاءُ . وَكَانَ مَاؤُهُمْ مِنْ بئْرَيْنِ :
بئْر زَمْزَمَ وَبئْر مَيْمُون . وفي الحديث: (كان صلى
الله عليه وسلم يقوم في جوف الليل فيقول : نامت
العيون و غارت النجوم وأنت الحي القيوم لا
يوارى منك ليل داج ولا سماء ذات أبراج ولا
أرض ذات مهاد تعلم خائنة الأعين وما تخفي
الصدور) (الراوي: أنس بن مالك المحدث: ابن

حجر العسقلاني - المصدر: الفتوحات الربانية
- الصفحة أو الرقم: 1773/، خلاصة حكم
المحدث: حسن و لولا المبهم الذي في سنده لكان
السند حسناً (المطلب الرابع: طول أيام الخلق بين
النصوص الشرعية والحقائق الكونية يقول
تعالى: (وهو الذي خلق السموات والأرض في
ستة أيام وكان عرشه على الماء) [هود 7]. لعل
الأيام الواردة في هذه الآية ليست الأيام التي
نعرفها بطول أربع وعشرين ساعة، إنما قد تعني
فترة زمنية. هذا ويرجح أن طول اليوم الواحد
من أيام الخلق هذه هو ألف سنة مما نعد (2)
مصدقاً لقوله تعالى: (وإن يوماً عند ربك كألف

سنةٍ مما تُعدُّون) [الحج 47]. ويرى بعضُ
المفسِّرين أنَّ كونَ اليومِ بطولٍ أقلَّ هو أكملٌ وأتمُّ
في إظهارِ القدرةِ الإلهيَّةِ على الخلقِ (123). إذا
كانت مادَّةُ خلقِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ (60)
والأرضينِ السَّبْعِ (28) هي مادَّةُ نيوكلونيَّةِ
(nucleonic)، فإنَّ أيَّامَ الخلقِ السَّتَّةِ يجبُ أن
تكونَ طويلةً؛ لعلَّ طولَ اليومِ الواحدِ منها ألفُ
سنةٍ مما نعدُّ. أمَّا إذا كانت مادَّةُ خلقِ السَّمَاوَاتِ
السَّبْعِ والأرضينِ السَّبْعِ هي مادَّةٌ غيرُ نيوكلونيَّةِ
(nonnucleonic) تستقلُّ عن الإشعاعِ بدرجةِ
حرارةٍ خاصَّة، فقد يكونَ طولَ اليومِ من أيَّامِ
الخلقِ بمقدارِ طولِ أيَّامِ الدُّنيا. روى مسلمٌ عن

أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: أخذ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيدي فقال: (خلق اللهُ عزَّ وجلَّ التُّربةَ يومَ السَّبْتِ، وخلقَ فيها الجبالَ يومَ الأحدِ، وخلقَ الشَّجرَ يومَ الإثنينِ، وخلقَ المكروهَ يومَ الثلاثاءِ، وخلقَ النُّورَ يومَ الأربعاءِ، وبتَّ فيها الدَّوابَّ يومَ الخميسِ، وخلقَ آدمَ عليه السَّلَامُ بعدَ العصرِ من يومِ الجمعةِ في آخرِ الخلقِ في آخرِ ساعةٍ من ساعاتِ الجمعةِ فيما بينَ العصرِ إلى اللَّيلِ (132). إِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ الصَّحِيحَ لَيْسَ مَوْضُوعَهُ الْحَدِيثَ عَنِ أَيَّامِ السَّنَةِ الْخَاصَّةِ بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ. وَأَرَدْتُ أَنْ أُبَيِّنَ هَذَا حَتَّى لَا يَحْتَجُّ بِهِ عَلَى طَوْلِ أَيَّامِ خَلْقِ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. إِنَّ الْأَيَّامَ الْوَارِدَةَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ هِيَ أَيَّامُ الْأَسْبُوعِ السَّبْعَةِ الَّتِي نَسْتَعْمَلُهَا حَالِيًّا. وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا الْعِبَارَةَ (فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ). كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ الْجَنِّ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْأَرْضَ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَا يَعْقِلُ أَنَّهُمْ سَكَنُوهَا قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَقَطْ بِأَقْلٍ مِنْ يَوْمٍ وَاحِدٍ. وَمِمَّا يَقْوِي هَذَا الْفَهْمَ أَنَّ الْحَدِيثَ لَيْسَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى خَلْقِ السَّمَاءِ. وَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى دَحَا الْأَرْضَ وَأَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرَعَاهَا بَعْدَ تَمَامِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَكَذَلِكَ نَقُولُ إِنَّ اللَّهَ - سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى - قَدْ أَخْرَجَ ضَحَى السَّمَاءِ بِنُورِ الشَّمْسِ بَعْدَ تَمَامِ

أيام الخلق الستة. فإن خلق مجموعتنا الشمسية
يتطلب حدوث انفجار سوبر نوبا لنجم قديم ذي
كتلة تعادل حوالي عشرين ضعف كتلة الشمس،
وذلك حتى يتحقق إنزال (بمعنى خلق وبعث)
الحديد والعناصر الثقيلة التي تتخلق في باطن هذا
النجم بفعل تفاعلات الاندماج النووي (أنظر
بحث: إنزال الحديد). لذا فإن الأيام الواردة في
الحديث هي من أيام دحو الكرة الأرضية، وليست
من أيام الخلق الستة التي خلق الله خلالها الكون
بسماواته وأرضيه ومادة أصل خلق المدائن
والعمران والخراب (131-134). إن قوله
تعالى : (عَأْنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بِنَاهَا *رَفَعَ

سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا * وَأَخْرَجَ
 ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا
 مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ([النازعات 27-31] لهو دليل
 قاطع بأن دحو الكرة الأرضية (أخرج منها ماءها
 وَمَرْعَاهَا) قد كان بعد انقضاء الأيام الستة التي
 تمّ خلالها خلق السماوات والأرض (بمعنى الجزء
 السفلي من الكون) (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ
 دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا). ويشير إلى
 هذا الفهم ما جاء في صحيح الحاكم: "في قوله
 تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ
 ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ)
 [الأعراف 172]. قال: جمعهم له يومئذ جميعاً ما

هو كائنٌ إلى يوم القيامة، فجعلهم أرواحاً، ثم صورهم واستنطقهم فتكلموا، وأخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم: ألسن بربكم؟ (قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)، قال فإني أشهد عليكم السماوات السبع والأرضين السبع، وأشهد عليكم أبائكم آدم (أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)، فلا تشركوا بي شيئاً، فإني أرسل إليكم رسلي يذكرونكم عهدي وميثاقي وأنزل عليكم كتابي، فقالوا نشهد أنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك، ورفع لهم أبوهم آدم فرأى فيهم الغني والفقير وحسن الصورة وغير ذلك ... الخ "

(135). الشاهد من الحديث هو (فإني أشهد عليكم السماوات السبع والأرضين السبع)، والعبارة (ورفع لهم أبوهم آدم). هذا وقد دلّ الحديث على أنّ خلق الأرواح قد سبق خلق الأجساد، كما أنّ شهادة السماوات السبع والأرضين السبع على الأرواح تقتضي أنّ السماوات السبع والأرضين السبع قد خلقن قبل خلق الأرواح، ويشهد لهذا الآية الكريمة (مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ) [الكهف 51]. ويأتي هذا الفهم منسجماً مع كشوف العلم: يُقدَّرُ عمر الكون بحوالي 13.7 مليار سنة (136)، وقد مضى من عمر الشَّمس حوالي 5 مليار سنة

(137). (وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا) أي وأبرز ضوء
شمسها (82-90)، كقوله تعالى: (وَالشَّمْسِ
وَضُحَاهَا) [الشمس1]. بينما مضى على تكوّن
القشرة الصلبة للأرض حوالي 4.5 مليار سنة
(138)، ومضى أقلّ من ذلك على تكوّن
المحيطات الأولى (وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ
دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا). أمّا هذا
الحديث فيورد أنّ خلق الشجر —والذي يتطلّب
أرضاً مدحوه— قد كان في اليوم الثالث من الأيام
التي يذكرها الحديث. إنّ هذا يستلزم أن تكون
الأيام الواردة في الحديث الشريف غير أيام الخلق
السنة. وإنّ هذا الفهم ليتفق مع قول الشُّراح من

أَنَّ الْمَقْصُودَ بِالْمَكْرُوهِ (وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ
 الثَّلَاثَاءِ) هُوَ مَا يَقُومُ بِهِ الْمَعِاشُ وَيُصْلِحُ بِهِ
 التَّدْبِيرُ كَالْحَدِيدِ وَغَيْرِهِ مِنْ جَوَاهِرِ الْأَرْضِ
 (132). وَقَدْ ثَبَتَ عِلْمِيًّا أَنَّ تَشَكُّلَ الْمَعَادِنِ الثَّقِيلَةِ
 قَدْ جَاءَ فِي مَرِحَلَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ مِنْ مَرَاكِلِ الْخَلْقِ؛ إِذْ
 هُوَ يَتِمُّ بِفَعْلِ تَفَاعُلَاتِ الْإِنْدِمَاجِ النَّوَوِيِّ فِي بَاطِنِ
 نَجُومٍ قَدِيمَةٍ ذَاتِ كِتْلِ حَوَالِي عَشْرِينَ ضِعْفِ كِتْلَةِ
 الشَّمْسِ (139) (إِنْزَالِ الْحَدِيدِ). وَيَقْوَى هَذَا
 الْفَهْمُ أَنَّ الْحَدِيثَ يُورِدُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ، أَمَّا الْآيَاتُ
 الْكَرِيمَةُ فَتُحَدِّثُ عَنِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي
 سِتَّةِ أَيَّامٍ. وَكَذَلِكَ فَإِنَّ هَذَا الْفَهْمَ يُوفِّقُ بَيْنَ الْآيَاتِ
 وَالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ. كَمَا وَيَدْعُمُ هَذَا الْفَهْمُ أَنَّ

الرّسول -صلى الله عليه وسلم- قال:

(حدثنا قتيبة حدثنا المغيرة بن عبد الرحمن عن

أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أنّ

النبي -صلى الله عليه وسلم

قال: (خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه

خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها ولا

تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة)

(140). وعنه: قال رسول الله :

خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه

خلق آدم ، وفيه أهبط ، وفيه تيب عليه ، وفيه

قبض ، وفيه تقوم الساعة ، ما على الأرض من

دابة إلا وهي تصبح يوم الجمعة مصيخة ، حتى

تطلع الشمس ، شفقاً من الساعة ، إلا ابن آدم ،
وفيه ساعة لا يصادفها عبد مؤمن وهو في
الصلاة يسأل الله فيها شيئاً ، إلا أعطاه إياه . قال
كعب : ذلك يوم في كل سنة . فقال عبد الله بن
سلام : كذب كعب . قلت : ثم قرأ كعب ، فقال :
صدق رسول الله هو في كل جمعة ، فقال عبد الله
: صدق كعب : إني لأعلم تلك الساعة . فقلت :
يا أخي حدثني بها ، قال : هي آخر ساعة من يوم
الجمعة ، قبل أن تغيب الشمس . فقلت : أليس قد
سمعت رسول الله يقول : لا يصادفها مؤمن وهو
في الصلاة وليست تلك الساعة صلاة ؟ قال :
أليس قد سمعت رسول الله يقول : من صلى

وجلس ينتظر الصلاة لم يزل في صلاته حتى تأتيه الصلاة التي تلاقيها . قلت : بلى ! قال : فهو كذلك . (الراوي : أبو هريرة المحدث : الألباني -المصدر : صحيح النسائي- الصفحة أو الرقم: 1429، خلاصة حكم المحدث : صحيح) . إنَّ الحديث يدلُّ على أنَّ الأيام السنَّة التي خلقت فيها السَّمَاوَات والأَرْض لم تكن أَيَّاماً فلكيَّة، تعتمد طلوع الشَّمس وغروبها . وإنَّما هي سابقة لخلق آدم، وإن خلق الشَّمس قد بدء بعد انتهائها بفترة زمنية كبيرة . وإنَّه لمن المناسب أن يكون ليوم الجمعة الَّذي فيه خُلِق آدمُ نفس طول يوم الجمعة الَّذي فيه أُدخِلَ الجنَّة، ولكلِّ طول يوم الجمعة

الذي فيه أخرج منها (حوالي 24 ساعة). إن قوله
صلى الله عليه وسلم- (خلق الله عز وجل التربة
يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد)، يؤكد
أن المقصود بالرواسي في الآية: (وجعل فيها
رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها
في أربعة أيامٍ سواً للسانين) [فصلت 10] هو
ما ذهب إليه الباحث من أن الرواسي هي المادة
التي بدأت تتشكّل وترسو بكميات كبيرة في
الأجزاء العليا من الأرضين السبع. أورد صاحب
البحر المحيط (141): قوله (في ستة أيام) ظرفاً
لخلق الأرض (كرتنا الأرضية) لا ظرفاً لخلق
السموات والأرض، فيكون (في ستة أيام) مدة

لخلق الأرض (كرتتا الأرضية) بتربتها وجبالها
وشجرها ومكروها ونورها ودوابها وآدم عليه
السلام كما أشار الحديث الثابت الصحيح (132)
(أنظر بحث: مدّ الكرة الأرضية). ويتساءل
الشعراوي (142) "هل خلق الله يحتاج إلى علاج
حتى يتطلّب الزمن الممتد؟ ويجب بالقول: إنّ
ربّنا يخلق ب (كن)، ونحن البشر نعالج على
حسب قدرتنا لنصنع شيئاً، وكلّ عملية نقوم بها
تأخذ زمناً، لكن من يخلق بكلمة (كن) فالأمر
بالنسبة له هيّنٌ جدّاً. لكن لماذا جاء بخبر الخلق
في سنة أيام؟ نعم أنّ هناك فرقاً بين ميلاد
الشيء وبين تهيئته للميلاد. ويضرب لذلك مثلاً

بصانع الزبّادي الذي يكتفي بأن يضع عناصر التخمّر على الحليب لتتفاعل ... إذن فخلق الله السماوات والأرض في ستة أيّام لا يعني أنّ الستة أيّام كلّها كانت مشغولة بالخلق، بل قال سبحانه (كن) وبعد ذلك تأخذ مكونات السماوات والأرض قدرها ومراحلها، لأنّ ميلادها سيكون بعد ستة أيّام ... لقد خلق سبحانه السماوات والأرض دون تعب، فهو سبحانه يعالج مسألة الخلق بأمر (كن)، فكانت السماوات والأرض". أورد الخطيب (143): "الأيّام الستة ليست بياناً للزمن الذي عملت فيه القدرةُ هذا الخلق للسّماوات والأرض -كما يذهب إلى ذلك أكثرُ المفسّرين- فذلك فهمّ

قاصر لقدرة الله، التي تحكم الزمن ولا يحكمها ..
 (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن
 فيكون). فهذه الأيام الستة هي المدة التي ينضج
 فيها خلق السموات والأرض، وهي الوعاء
 الزمني لخلق السموات والأرض، وتسويتها
 على الصورة التي أرادها الله وذلك كما يتخلق
 الجنين في بطن أمه، ويتم خلقه في تسعة أشهر
 .. وهكذا الشأن في كل مخلوق .. له وعاء زمني
 يتخلق فيه، وأجل محدود ينتهي إليه". وقد سبق
 بيان ما يرجحه المفسرون من أن طول اليوم
 الواحد من أيام خلق السموات والأرض هو ألف
 سنة مما نعدُّ. هذا ويورد الدكتور الطائي (144)

قوله: "أنّ القول بتمام الخلق خلال سنّة آلاف سنة قمرية مخالف لمكتشفات العلم الصحيح التي تقدّر عمر الكون ما بين (10-20) مليار سنة". ويرى الباحث أنّ عمر الكون حالياً يختلف تماماً عن الأيام السنّة التي تمّ فيها خلق السّماوات والأرض. إنّ الأيام السنّة التي تمّ فيها خلق السّماوات والأرض هي فترة حضانة أشبه بمرحلة تكوّن وتخلّق الجنين في رحم أمّه. إنّ هذا الاختلاف شبيه باختلاف عمر الإنسان عن فترة تخلّقه جنيناً. ويورد الدكتور الطائي في الكتاب نفسه رأي الدكتور منصور محمد حسب النبي في كتابه الكون والإعجاز العلمي للقرآن

وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا
 قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي
 يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ
 الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ
 [فصلت 9-12]. فقوله تعالى: (قُلْ أَتِنَكُم
 لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ)،
 كلمة (الْأَرْضَ) تعني الأرضين السبع (المادة
 المظلمة الباردة) وليس الكرة الأرضية. وبالتالي
 فهما لا يعرفان هذا المعنى للأرض (الأرضين
 السبع) ، وكلاهما يخلط بين العمر الحالي للكون
 وبين الأيام الستة التي تمّ فيها خلق السماوات
 السبع والأرضين السبع. وبالتالي فإنّ هذا

يدحضُ رأي الطائي وحسب النبي القائل بأنَّ عمر الأرض الجيولوجي (4.5 مليار سنة) يعدُّ طول يومين من أيام الخلق. وفي عام 2002 ذكر لي الدكتور الطائي أنَّه قد تخلَّى عن هذه الفكرة والتي كان قد أخذها من كتاب الدكتور منصور محمّد حسب النبي. هذا ويرى الفيزيائيُّ الشَّهير ستيفن وينبرق (Steven Weinberg) في كتابه الدقائق الثلاث الأولى (The first three minutes) أنَّ الكون يستمرُّ في توسُّعه وتبرّده، وأنَّ الأحداث المهمّة تأخذ مجراها عندما يصبح عمر الكون أكبر من حوالي 0.7 مليون سنة: حيث يصل الكون إلى حالة التّمايز بين المادّة

والإشعاع، ويصبح شفافاً للإشعاع
 (Transparent to radiation) وتصبح
 الذرات مستقرة (stable)، وتبدأ المادة تشكّل
 المجرات والنجوم بعد هذا العمر. لقد استغرق
 الأمر حوالي 380,000 سنة حتى تنخفض درجة
 الحرارة إلى أقلّ من 3000 كلفن ويبدأ التمايز
 (Decoupling) بين الإشعاع والمادة. وعندها
 احتُجزت الإلكترونات في مدارات حول النواة،
 ممّا شكّل الذرات الأولى: الهيدروجين والهليوم،
 والتي لا تزال حتى الآن العناصر الأكثر وفرة في
 الكون. وفي وقت لاحق يقدر
 بحوالي 1.6 مليون سنة - 400 مليون سنة،

استطاعت قوّة الجاذبيّة أن تشكل النجوم
 والمجرات من سحب الغاز. يوم 25 / 9 / 2012،
 أصدرت وكالة ناسا صورة أكثر دقّة لحقل فائق
 العمق يطلق عليه اسم الحقل متطرف العمق
 (Extreme Deep Field (XDF)). تكشف
 الصورة XDF مجرات تمتد في الزمان إلى ما
 قبل 13.2 مليار سنة ، وهذا يشير نظريًا إلى أنّ
 مثل هذه المجرات تم تشكيلها فقط
 بعد 450 مليون سنة من الانفجار
 الكبير. [6] وفي 3 / 6 / 2014 أصدرت وكالة
 ناسا ، ولأول مرة، صورة لحقل هابل فائقة العمق
 وذلك باستخدام الرّصد على جميع الأطوال

الموجية من الأشعة فوق البنفسجية إلى الأشعة تحت الحمراء [3]. (الشكل التالي). ويقول تعالى: (وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا) أي وأبرز ضوء نجومها، كقوله تعالى: (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) [4]. ولقد أوردنا آنفاً أن السماء كانت في الحالة الدخانية (Opaque coupled state) عند بدء الخلق. ويستلزم هذا أن طول أيام الخلق السنة أقل من الحقبة الزمنية 0.7 مليون سنة التي تلزم حتى يحصل التمايز بين الإشعاع والمادة (Transparent decoupled state) (68-69). هذا وقد تكون درجة حرارة المادة التي تشكل منها كلٌّ من

البناء السماوي والمجرات القريبة منه أقل من درجة حرارة المادة القريبة نسبياً من مركز الانفجار؛ مما يجعل طول أيام الخلق الستة أقل من 0.7 مليون سنة وبفارقٍ أكبر. إذا قبلنا أن تكون أيام الخلق الستة أقل من 0.7 مليون سنة، ولم نستبعد أن تكون هناك وسائل يجهلها العلم، قد يجعلها الخالق لتبريد المادة الكونية، فلا يبعد أن يكون طول اليوم الواحد من أيام الخلق ألف سنة مما نعدّ. ويؤكد هذا التبريد الحديث الشريف عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- (إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم. ولولا أنها أطفئت

بالماء مرتين ما انتفعتم بها. وإنها لتدعو الله عز وجل أن لا يعيدها فيها) (145). أقول لعل المادة الكونية قد تم تبريدها بالماء كذلك؛ مما يسارع في تبريدها وتشكلها. فلقد قلنا آنفاً: لعل مادة بدء الخلق هي بعض الماء الذي سبق وجوده خلق السماوات والأرض. وهذا الوجود للماء يؤكد اكتشاف جديد: وهذا الوجود القديم للماء يؤكدها الحديث

الشريف: (قدّر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء) (كتب الله تعالى مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة

وعرشه على الماء) إذن هو سبحانه وتعالى
يخلق بأمر (كن) ويقدر وعاءً زمنيًا لتفاعلات
الخلق. وهذا الزمن طال أو قصر ليس لينتقص
من القدرة الإلهية. أرجح أن الوعاء الزمني لخلق
السموات السبع والأرضين السبع هو (ستة أيام
) بطول ستة آلاف سنة مما نعدُّ؛ هذا إذا كانتا
مخلوقتين من مادة نيوكليونية
(Nucleonic). ويرى بعض المفسرين أنهن
بقدر ستة أيام من أيام الدنيا، وقد يرجح هذا
الرأي إذا كانتا مخلوقتين من مادة غير
نيوكليونية (Nonnucleonic). هذا والله
سبحانه وتعالى هو العالم بطولها. لا بل إن

علمي الكون والفلك لم يتوصّلا بعد لمعرفة شيءٍ
يذكرُ عن بناء السّماوات السّبع أو بناء الأرضين
السّبع (المادة المظلمة الباردة)
(29، 119).المطلب الخامس: توسّع بناء
السماء مستمرّاً إلى يوم القيامة وسنتعامل مع
بناء السّماء على أنّه مرآة كروية متوسّعة، ممّا
يوذّي إلى انخفاض درجة حرارة الكون. إنّ أهمّ
ما يميّز هذا النّمودج أمران: ثبات عدد الفوتونات
(Photons): كما تبين الآية الكريمة: (وَالسَّمَاءِ
ذَاتِ الرَّجْعِ) (الطارق 11) ؛ هذا بالإضافة إلى ما
ذكره ابن عباس (على اعتبار أنّ السماء بمعنى
السحاب أو الغلاف الجويّ) : الرَّجْعُ الْمَطْرُ وَعَنْهُ

هُوَ السَّحَابُ فِيهِ الْمَطَرُ وَعَنْهُ " وَالسَّمَاءُ ذَاتُ
الرَّجْعِ " تُمْطِرُ ثُمَّ تُمْطِرُ (ابن كثير). وَأَنَّ
التناقص في طاقة الإشعاع الكوني يساوي جزءاً
من الشغل المبذول (Work) في توسع الكون
(117). عند توسع الكون مع ثبات الاعتلاج
(Entropy)، تكون العلاقة عكسية بين درجة
حرارة الإشعاع الكوني T ونصف القطر R للبناء
السمائي الكروي؛ $TR = \text{ثابت}$. وبالتالي فإن
العدد الكلي، N ، للفوتونات الموجودة في الكون
يكون ثابتاً (117):

$$N = \frac{4}{3}\pi \left(\frac{k}{hc}\right)^3 (TR_1)^3 (60.42198) = \text{constant}$$

هذا ويمكننا المقارنة بين نصف قطر الكون في حالتين: الأولى R_d عندما كان الإشعاع والمادة مقرونين عند درجة الحرارة 3000 كلفن، ونصف القطر الثاني R_3 عندما أصبحت درجة حرارة الإشعاع 3 كلفن. نستطيع تحديد حقبة التمايز (Epoch of decoupling) بين المادة والإشعاع على النحو (146): يلاحظ أنّ قطر الكون قد تضاعف حوالي ألف مرّة بعد التّمايز. وبما أنّ الإزاحة الحمراء ترصد لغالبية المجرّات، فإنّ توسّع الكون لم يتوقّف. إنّ العلاقة بين كثافة المادة ρ_d عند حصول التّمايز، وقيمتها ρ_3 عندما أصبحت درجة حرارة

$$\rho_4 = (1000)^3 \rho_3 \cong 10^9 (10^{-27} \text{kgm}^{-3}) = 10^{-18} \text{kg m}^{-3}$$

إنّ قيمة الكثافة عند حصول التّمايز أكبر بحوالي
مليار مرّة من القيمة المرصودة لمتوسّط الكثافة
داخل مجرتنا

ولو افترضنا أنّ الكون قد توسّع بسرعة ثابتة،
فإنّنا نستطيع أن نقارن بين عمر الكون في
الحالتين: لو افترضنا أنّ t_d حوالي 0.7 مليون
سنة، فإنّ t_3 يكون حوالي 700 مليون
سنة. وبهذا يكون توسّع البناء السّماوي قد
توقّف عندما كان عمر الكون حوالي 700 مليون
سنة. وبما أنّ الإزاحة الحمراء مؤشّرٌ على
استمراريّة توسّع بناء السماء، في حين أنّ درجة

حرارة إشعاع الخلفية الكوني لا تزال 3 كلفن، فإنّ هذا مؤشر على أن العامل الرئيس في التوسع الكوني هو الطاقة المظلمة. وهذا يؤكّد أنّ بناء السماء في توسّع مستمرٍ إلى أن تقوم الساعة (60) ، مصداقاً للآية (والسّماء بنيناها بأيدينا وإنّا لموسعون) [الذّاريات 47]. وهذه الآية بيان للعامل الرئيس في التوسع الكوني وهو ما يسميه علماء الكون بالطاقة المظلمة (Dark energy or negative pressure). (أنظر: الفرع الثالث (الضغط السّالب) من بحث: بناء السماء). فالخالق سبحانه وتعالى يرفع البناء السّماوي ويوسّعه بقوّته وقدرته، وليس الأمر

موكلا فقط لضغط الإشعاع الكوني أو الجذب الثقالي. هذا وقد يتعرّض البناء السماوي للتسخين من قبل المجرّات، كما وأنه يتبرّد مع التوسّع (60). الخاتمة كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. فلقد كان الله ولم يكن شيءٌ غيره، وكان عرشه على الماء. فخلق الله الماء أولاً ثم خلق العرش. يرى المفسّرون أنّ الماء هو مادّة بدء الخلق، هذا ولا مانع من أن تكون السماوات السبع والأرضين السبع قد خلقتا من العدم. حدث انفجارٌ عظيم في مادّة بدء الخلق للسماوات والأرضين بعد أن كانت رتقاً (أولم ير الذين كفروا أنّ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كَانَتَا رَتْقًا فَتَقْنَاهُمَا
 [الأنبياء 30]. ومع توسّع وتبرّد الكون حدث
 الفتق: أي خلق الله الأرضين السّبع الطباق وخلق
 كذلك السّمَاوَاتِ السّبع في سنّة أيّام. إذا كانت
 مادّة خلق السّمَاوَاتِ السّبع والأرضين السّبع مادّة
 نيوكليونيّة، فإنّ طول اليوم الواحد من أيّام خلقهنّ
 يعدلُ ألف سنةٍ ممّا نعدُّ. أمّا إذا كانت مادّة خلقهنّ
 مادّة غير نيوكليونيّة، فيرجح أنّ أيّام خلق
 السّمَاوَاتِ السّبع والأرضين السّبع هي بطول
 الأيّام الأرضيّة (24 ساعة). لقد بدأ خلق
 الأرضين السّبع مع الانفجار العظيم، ومع نهاية
 اليوم الثاني اكتمل خلقها. ومع نهاية اليوم الرّابع

خلق الله في أعاليها الدقائق الأولى للمادة
والإشعاع اللذين كانا أساساً لخلق المادة
النيوكلونية، وأساساً لدحو الكرة الأرضية التي
تأخر خلقها حوالي ثماني مليارات سنة عن خلق
الأرضين السبع وخلق السماوات السبع. ومع
نهاية اليوم السادس اكتملت تسوية البناء
السماوي الطبقي بعد أن استقرت طبقاته مكانياً
وحرارياً. هذا وإن بناء السماء واسع ومتوسّع
إلى أن يطوى يوم القيامة. وعندما أصبح عمر
الكون من رتبة مليون سنة بدأ خلق النجوم
والمجرات. وبعد ثماني مليارات سنة من انقضاء
الأيام الستة الخاصة بخلق السماوات السبع

والأرضين السَّبْع بدأ خلق مجموعتنا الشمسية :
أخرج الله سبحانه وتعالى ضحى السماء بنور
الشمس، ودُحيت الكرة الأرضية؛ إذ أخرج الله
منها ماءها ومرعاها. ويأتي هذا التسلسل
منسجماً مع ما أثبتته العلم من عمر الكون
والشمس، وللزمن الذي مضى على تكوّن القشرة
الصلّبة للأرض. [الجاثية:

ماذا وراء خلق الخلق : 6]. السؤال: إذا كان
الله سبحانه غنياً بذاته ولا يحتاج
الى خلقه في أيّ شأنٍ من
شؤوناته، فلماذا خلق الخلق مع
عدم حاجته إليهم سبحانه؟

الروايات التي وجدتها بعضها يقول: خلقه ليعبدوه أو ليعرفوه.. ولكن الله سبحانه لا يحتاج إلى عبادة الخلق أو إلى معرفتهم فهناك جهات من الكلام هنا، أوجز ببعض التعليقات فيها: أولاً: دائماً يقوم الإنسان بإسقاط ذاته على الأشياء العاقلة التي تشترك معه في العقل، فيرى أن مبررات فعله يجب أن تكون هي مبررات فعل الآخرين، وإذا رأى فعلاً ما ليس له مبرر لو صدر منه هو، فإنه سوف

يستغرب صدوره من غيره،
 فيسقط عليه عنوان العبثية، وهذا
 يعني أنّ نقطة البداية هي الأنا،
 ثم قياس غيرها عليها، ثم الخروج
 باستنتاج. هذه العملية ليست
 خاطئة؛ لكنّها لوحدتها لا تكفي
 لتفسير الأشياء جميعاً، ولا يوجد
 دليل فلسفي أو علمي يثبت
 كفاية عملية القياس هذه في كلّ
 الأمور، وهذا يعني أنّ افتراض أنّ
 الله لا يحتاج لنا ليس افتراضاً معيقاً
 لخلقه إيانا؛ لأنّ إعاقته معناها أنّنا

نصوّر الله على صورة إنسان، ثم
نفترض الغايات التي فعله
مشابهةً للغايات التي فعلنا،
وحيث إنّ حجر الزاوية في غايات
أفعالنا هي مفاهيم مثل: الحاجة،
التكامل، والرغبة، فهذا يعني أنّه
لا بدّ أن تكون أفعال الله محكومةً
لنفس منطق الغايات البشريّة
هذه..... هذه الآلية في التفكير لا
برهان علميٍّ عليها بوصفها قانوناً
مطلقاً في تفسير الظواهر، ولهذا
لا نطبّقها على أفعال الجمادات؛

لأننا ندرك أنّ الجمادات لا تتعامل
على طريقتنا في الأغراض
والغايات، بينما نقوم بتطبيقها
كثيراً على الحيوانات؛ لأننا نعرف
مسبقاً بأنّ هذه المخلوقات
تشبهنا كثيراً في طريقة عملنا
واردات فعلنا، فنجري عملية
القياس هذه انطلاقاً من عناصر
التشابه البنيويّة. حسناً، كيف
ينبغي أن ننظر إلى الفعل الإلهي؟
والجواب هو أنّه لا شيء يثبت
بالضرورة أنّه لا بدّ أن تكون مبررات

فعل الله كمبررات أفعالنا الراجعة
إلى حبّ الذات المتفرّع عنه طلب
المصلحة أو دفع المفسدة، فكلّ
من يقوم بممارسة عملية
الإسقاط هذه هو المطالب بأن
يثبت لنا وحدة هويّة الله وهويّة
الإنسان من حيث البنية الداخليّة،
لكي يتسنّى له أن يقول بأنّ الله
يفكّر كما أفكّر، ويتعامل مع الأشياء
كما أتعامل، ودوافعه تشبه
دوافعي. وما لم يُقم دليلاً على
وحدة الهوية أو تقاربها فسوف

تصبح عملية الإسقاط هذه غير علمية، إلا إذا قام دليل خاص عليها في حالة هنا أو هناك. والسبب هو أن الاختلاف بين الله والإنسان اختلاف عظيم للغاية، وينبغي أخذ درجة حدّة هذا الاختلاف في افتراض أن طريقة تعامله مع الأشياء قد تختلف عن طريقة تعاملنا، بمعنى أن المنطقات والدوافع ليست نفسية مثلنا. وهذه النقطة التي أثيرها هنا هي - بالتحليل - إحدى نقاط الاختلاف

في التفكير بين جمهور الفلاسفة
 والعرفاء من جهة والمتكلمين من
 جهة ثانية، إذ يؤخذ على
 المتكلمين في الغالب - عدا جمع
 من الأشاعرة - أنهم يدرسون
 صفات الله وأفعاله وغاياته وكأنهم
 يتصوّرونه إنساناً، فيقولون بأنه
 سيّد العقلاء، وسيّد أهل العقل،
 فلا بدّ أن يفكّر بالطريقة التي نفكّر
 نحن فيها. فيما يرى الفلاسفة
 والعرفاء - كثيرٌ منهم - أنّ الأمر لا
 يُدرس بهذه الطريقة دوماً، وأنّه

ينبغي الإقرار بأنَّ نظاماً ما يحكم -
إذا جاز التعبير - عالم الألوهية
يختلف تماماً عن النظام الذي
يحكم ذواتنا، وأنَّ هذه الفرضية
يجب أن يأخذها الباحث بعين
الاعتبار. ولهذا نجدهم يقولون بأنَّ
الإنسان السالك إلى الله يصبح
إلهياً، لا أنَّ الله يصبح إنسانياً،
فتأمل جيداً في الموضوع، فهو
نقطة اختلاف منهجية كبيرة، فهذا
أشبه شيء بالفيزياء الكمية عندما
تقول لنا بأننا عندما ندخل عالم

الذرة فسوف تتلاشى كل الأنظمة التي كانت تحكم العالم من قبل، وكنا نتصور أنّها قادرة على حكم كل شيء، فإذ بها لا تحكم أعماق الذرة وأسرارها. ثانياً: لنفرض أنّ الله لأنه كريم خلق الخلق كي يمنحهم فرصة للسعادة، بعبادته ومعرفته، دون أن يحتاج هو إلى عبادتهم ومعرفتهم له، فهو شخصٌ - مثلاً - ينكر ذاته ولا يريد شيئاً من وراء أفعاله لنفسه، بل كل ما يريد هو أن يُسعد الآخرين،

فخلق (الآخرين) كي يمنحهم
فرصة السعادة، فإذا عملوا
واستغلّوا هذه الفرصة اكتسبوا
السعادة في الآخرة، وإذا تركوها
فقد أوردوا أنفسهم في الشقاء.
هذه الفرضية لا يوجد ما ينفيرها،
وعندما نتكلّم في عالم
الميتافيزيقا فيجب أن لا نقيس
ذلك العالم على ذواتنا كما قلنا،
فلسنا نحن نهاية العالم وتمام
وجوده، وكلّ الفرضيات تصبح
معقولة وممكنة ويجب دراستها ما

لم يَقم دليل علمي حاسم على
 بطلانها. حسناً ما المشكلة في
 الفرضية السابقة، وهي أن الله
 يعطي، وأن صفة الكرم والفيض
 عنده دائمة، لأنها كمال وجودي،
 ولهذا كان العالم وكانت الفُرص،
 وكان الإنسان. إن هذه الفرضية
 ممكنة، ولا يوجد برهان عقلي أو
 معطى علمي يؤكد بطلانها،
 ومجرد أننا لم نثبتها لا يعني ذلك
 أنها باطلة، وما دامت ممكنة إذاً فلا
 موجب لاستنكار خلق الله لنا أو

اعتباره عبثاً، فأنت تمنح ولدك - أو أي شخص آخر - رأس مال لكي يعمل ويبني حياته، ولنفرض أنك لا تريد شيئاً، بل تريد السعادة له، أي مشكلة في ذلك؟ فإذا جدّ واجتهد كسب الفرصة ونال النعيم في باقي عمره، وإلا فقد خسر وبقي إلى آخر عمره في شقاء وضنك من العيش، والعقل يمدح فعلك ويحسن عملك. **ثالثاً:** لنفرض أنه لا توجد بأيدينا فرضية ممكنة بوصفها مبرراً لخلق الله للعالم، حسناً ماذا

يعني ذلك؟ إنه يعني - إذا أردنا أن نكون علميين وأكاديميين في تعاملنا مع الأمور - أن عقلنا لم يصل إلى تقديم تفسير علمي لهذه الظاهرة، عنيت ظاهرة خلق الله للعالم من حيث منتقلاتها ودوافعها، لكن هل عدم وصولنا إلى تفسير علمي لفهم منطلقات ظاهرة خلق الله للعالم يعني بالضرورة أن هذه الظاهرة عبثية أم لا؟ سأذكر مثلاً للتقريب وإن لم يكن مطابقاً، وهو أنه عندما يواجه

العلماء ظاهرةً كونيّةً ما في
 الغضاء أو في مختبراتهم، ثم
 يبحثون في تفسير هذه الظاهرة
 ومبررات وجودها، ولكنهم وبعد
 مرور عقود من الزمن أو قرون
 يعلنون أنّهم لم يستطيعوا فهم
 مبرر وجود هذه الظاهرة، ما الذي
 عليهم قوله؟ إنّ عليهم أن يقولوا
 بأننا لم نفهم وجه الحاجة إلى
 الزائدة الدوديّة في الجسم. لكن
 ليس لهم أن يقولوا بأنّ الزائدة
 الدوديّة لا فائدة منها بالتأكيد،

ويبرّون قولهم بأننا لم نتوصّل إلى
 فائدة لها. لماذا؟ لأنّ تجربة
 المعرفة الإنسانية تؤكّد باستمرار
 أنّ عدم القدرة على فهم شيء لا
 يعني أنّ هذا الشيء باطل، إنّما
 يصبح باطلاً عندما ندرك فساده، لا
 عندما لا ندرك صلاحه. نعم لا
 يمكنني القول بأنّ الزائدة الدوديّة
 مفيدة للجسم وضروريّة؛ لأنّ هذا
 لم يثبت لي، لكنّ هذا لا يعني أنّ
 بإمكانني القول بأنّ الزائدة الدودية
 لا فائدة لها، فإنّ عدم إثبات الفائدة

غير إثبات عدم الفائدة. الأمر عينه يجري فيما نحن فيه، فإنني عندما لا أملك فرضية معقولة وممكنة لتفسير مبررات خلق الله للعالم يمكنني القول - على أبعد تقدير - بأنه لم يثبت لي فائدة لخلق الله للعالم، لكن لا يمكنني القول بأنه ثبت لي عدم وجود فائدة، حتى أزعم بأن الله قد صدر منه فعل العبث. وهذا الأمر مرجعه إلى نقطة مهمّة في سلامة نظام التفكير، وهي أنّ الإنسان العلميّ

والأكاديمي والمنهجي عليه أن
يربّي نفسه وعقله على أن ما
أعرفه فهو واقع؛ لأنني عرفته،
لكن ما لا أعرفه لا يعني أنه ليس
بواقع لأنني لم أعرفه! وهذه هي
نزعة التواضع في العقل، والتي
دعت إليها العقلانية النقدية
المحدثة في الغرب، بعد عصر
الاغترار بالعقل وكأنّ كلّ ما لم
يصل إليه العقل فهو باطل. كلا،
فما وصل إليه العقل - سلباً أو
إيجاباً - بالدليل فهو صحيح، لكن

ليس ما لم يصل إليه العقل فهو باطل؛ لأنّ العقل لم يبلغ كلّ شيء، وهذه ملاحظة نقدية على كثير من نقّاد الفكر الديني في العالم العربي والإسلامي، لأنّهم ورغم دخولهم - كما يقولون - فضاء العصر ما بعد الحداثوي، لكنّهم في تعاملهم مع الدين ما زالوا يفكّرون بطريقة العقل الحداثي الذي يقول بأنّ معيار الحقّ والباطل هو العقل فقط، وأنّ العقل سلطان لا يمكن أن يتكلّم معه أحد، وأنّ كلّ ما

أدركه فهو صحيح وما لم يصل إليه
فهو باطل!! وهي مفارقة تستحق
الوقوف عندها في هذا
المجال. لقد كنا دائماً نعارض اللغة
الدوغمائية والطوباوية لبعض
أنصار التيار الديني، فيتكلمون
وكأنهم ينطقون بلسان الغيب، وأن
بيدهم مغاليق السماوات والأرض،
وأن ما يعرفونه فهو حق، وما
يجهلونه فهو الباطل المنكر،
ولأنهم لا يعرفون العلوم الطبيعية
والإنسانية عارضوها وسخفوها!!

ولكننا نجد أنّ هذه الظاهرة لا تقف في مجتمعاتنا العربية والإسلامية عند التيار الديني، بل هي - مع الأسف - ضاربة في العمق أيضاً في بعض التيارات العلمانية والنقدية، فبعضهم أيضاً إذا لم يثبت شيءٌ عنده أو لم يرق له وينسجم مع مزاجه المعرفي قال عنه فوراً بأنه باطل، وكلّ ما لا يعرفونه فهو خيال وسراب وخرافة، وهذا هو معنى الحكمة القائلة بأنّ الناس أعداء ما جهلوا،

ولم يقل بأنَّ الناس أعداء ما علموا
ببطلانه، فالإنسان بطبعه مع
الأسف عندما لا يثبت شيء عنده
يعتبره لم يقع، نعم نحن لا نطالبه
بأن يعتبره قد وقع، فهذا حقّه، ولا
يلزمه أحد بأن يرتّب آثار وقوع ذلك
الشيء، لكن لا يمكنه نفيه إلا
بدليل، تماماً كما لا يمكن إثباته إلا
بدليل، وعدم الدليل على إثباته
يفيد في أنه لم يثبت، لكنّه لوحدّه
لا يفيد في أنه قد ثبت عدمه. وهذا
بالضبط ما نقوله دوماً في حقّ

العرفاء، وأشرت إليه في كتابي
(مسألة المنهج في الفكر
الديني)، فنحن لم يثبت لدينا صحّة
دعواهم بوجود كشف وعلم
حضوري بالطريقة التي يتحدّثون
عنها، لكننا لا نستطيع أن ننفي
وقع شيء من هذا القبيل إلا
بدليل، وعدم قيام دليل على صحّة
قولهم يمكنني من التفلّت من
قولهم ولا يحقّ لهم معه إزامي
بقولهم، لكنّه لا يسمح لي بإبطال
قولهم بأنهم قد حصل معهم ما

يزعمون أو القول عنه بأنه خرافة
 أو تهريج ما لم يَقم عندي دليل في
 ذلك. إننا ندعو دائماً لتواضع العقل
 وتفكير المقولات والمفاهيم عن
 بعضها وعدم خلط الأوراق، كي
 نخرج بمجتمعنا من فضاء
 فوضويّة التفكير وصخبه واعتباطيّة
 البحث العلمي إلى فضاء أكثر
 هدوءاً ونظاماً وتمييزاً وتفكيراً بين
 الأشياء فالسبب العظيم من خلق الله عز وجل
 للإنسان؟ دون معرفة لماذا خلقنا الله والغاية
 والغرض من الحياة، وجود الإنسان يفقد كل معنى

وبالتالي يضيع، ويتم تدمير مكافأة لحياة أبدية من السعادة في الآخرة تماما. الدين لماذا خلقنا الله ما هو السبب. لماذا خلقنا الله هو موضوع يحير كل إنسان في مرحلة ما من حياته او حياتها. على الرغم من أن معظم الناس لا يضعون السؤال "لماذا خلقنا الله؟" في مركز تفكيرهم بعد فترة وجيزة في بعض الأحيان، فمن الأهمية بمكان لبني البشر معرفة الجواب. ان معرفة الجواب الصحيح هو ما يميزنا نحن البشر عن غيرنا من المخلوقات حولنا. دون معرفة الغاية والغرض من الحياة، وجود الإنسان يفقد كل معنى وبالتالي يضيع، ويتم تدمير مكافأة لحياة أبدية من السعادة

في الآخرة تماماحن البشر في معظم الأحيان نتجه صوب أمثالنا من البشر للبحث عن إجابات. ومع ذلك، فإن المكان الوحيد الذي لديه إجابات واضحة ودقيقة عن أسئلة مثل ”لماذا خلقنا الله؟“ يمكن العثور عليها في الكتب السماوية. لأنه من الضروري أن يكشف الله سبحانه وتعالى الغرض والهدف من خلقه للإنسان من خلال أنبيائه، لأن البشر عاجزون عن التوصل إلى الإجابات الصحيحة بأنفسهم. كل أنبياء الله ابُلغوا أتباعهم الإجابات على السؤال ”لماذا خلقنا الله“ سنبدأ بقراءة هذه الآية الكريمة يقول الله عز وجل في محكم آياته , وأصدق تأويله : **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا**

خَلَقْنَاكُمْ عِبَادًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ [سورة :
المؤمنون - ' 115 '] مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا
بِالْحَقِّ [سورة : يونس ' 5 '] لِمَاذَا خَلَقَنَا اللَّهُ ؟
... كما هو معلوم فإن الله تعالى غني عن الخلق
أجمعين وغني عن عبادتهم وطاعتهم , فهو
سبحانه لا تضره معصية العاصين ولا تنفعه طاعة
الطائعين , في نفس الوقت يجب علينا أن نعلم بأنه
ما من شخص عاقل على وجه الأرض يعمل عمل
معين من دون هدف , يكفي أن نبحت قليلا
للوصول للإجابة المرجوة ولعل ما يساعدنا على
إدراك الجواب هو قراءة هذه الآية الكريمة حيث
يقول الله عز وجل في كتابه العزيز: وما خلقت

الجن والإنس إلا ليعبدون [سورة : الذاريات ' 56
 'لماذا خلقنا الله ؟ ... : العبادَة إذن الهدف من
 خلق الله عز وجل لنا هو أن نعبدَه سبحانه وتعالى
 بحيث تعتبر العبادَة هي السبب الرئيسي من خلق
 الإنسان , فهذه العبادَة , هي حق الله على العباد
 والهدف من خلق الله عز وجل للبشر , فالله جل
 شأنه هو الرب , الخالق , الملك , الحق , الذي
 يستحق العبودية لوحده , دون شريك له في مقابل
 خلقه لنا , وهذه الصفات , تعتبر من صفات الجلال
 والكمال , و كما أنه سبحانه يحب ويكره , فإنه
 يحب أن يوحد , وأن يعبدَ ويمجد , فهو عز وجل ,
 يحب العبادات من عباده , أي نحن , كما أننا يجب

أن نعبده , طلباً لجنته , وخوفاً من ناره , وذلك في
 مقابل خلقه لنا في أحسن صورة . لماذا خلقنا الله ؟
 : لأنه يحبك وأن العبادة مقتضية بأسمائه
 وصفاته العلى , وكذاك لكمال ربوبيته وإلهيته
 وأسمائه وصفاته , وجب علينا أن نعبد ونمجده
 سبحانه وتعالى , لكي نعيش ونستمر في حياتنا
 بشكل يسير ومفيد لنا , فقد أنعم علينا نعماً لا تعد
 ولا تحصى , ولو فكرنا قليلاً وأمعنا النظر في نعم
 الله عز وجل علينا , و تأملنا في هذا الكون الذي
 جعله الله مسخراً لنا برحمته و جوده و فضله ،
 ونظرنا كيف ميزنا الله عن باقي المخلوقات
 الكثيرة والمختلفة في جمال أشكالنا وكمالنا،

ورقي معيشتنا , وغذائنا وكرامتنا , بالمقارنة
 معها , لعرفنا أن الله سبحانه وتعالى خلقنا لأنه
 يحبنا، وخلقنا من أجل السعادة والخلود، وأعطانا
 الحياة الدنيا هدية ومحبة منه، وفرصة ذهبية لا
 تعوض لكي نتعرف عليه ونتقرب منه فنفوز بنعيم
 الحياة الأخرى الأبدية، أي أن السبب من خلق الله
 عز وجل للبشر هو حبه لنا , لذلك من الواجب
 علينا جميعا , في مقابل هذا العطاء الإلهي العظيم
 والمستمر , وعلى هذا الحب الكبير أن نبادل الله
 العظيم بالحب الدائم والشكر المستمر والعبادة
 المستمرة . وأفضل طريقة نعبر بها عن حبنا لله
 وشكرنا له , هي بكثرة ذكره سبحانه وتعالى ، كما

قال سيدنا محمد رسول الله صلى الله وسلم على
أشرف الأنبياء والصالحين نبينا محمد وعلى آله
وصحبه أجمعين : علامة حب الله .. كثرة ذكر الله
فهذا الذكر الكثير لله , هو سر السعادة في الدنيا
والآخرة، كما يعتبر من اقرب وأفضل العبادات الى
الله سبحانه وتعالى , وهو أيضا سبب آخر لسعادة
قلوبنا وطمأنينة قال تعالى ألا بذكر الله تطمئن
القلوب الخلاصة : دون معرفة الغرض من الخلق،
يظل الناس في هذه الحياة بلا هدف ، مثل السفن
في عرض البحر دون دفة فقد خلق الله كل شيء
من أجل إظهار صفاته. وبالتالي الخلق هو نتيجة
كونه الخالق . فالجنة تظهر رحمته ونعمه. وجهنم

تظهر عدالته والأخطاء البشرية تظهر كماله
ومغفرته. الكائنات الحية والغير حية تظهر كرمه،
الخ... أهمية معرفة ان الخلق هو الوسيلة التي
يظهر الله صفاته هي في أن البشر يمكنهم التعرف
بشكل صحيح على الله، وقبول القضاء
والقدر. وهذا هو السبب العظيم من خلق الله عز
وجل للإنسان واجابة من الدين على السؤال
: لماذا خلقنا الله؟ أسئلة في الإعجاز - هل المسافة
بين الأرض والسماء هي مسيرة 500 عام؟

سؤال في الإعجاز العلمي:



هل المسافة بين الأرض والسماء هي

مسيرة 500 عام؟

هذا تساؤل حول معنى

الحديث النبوي الذي يحدد

المسافة بين السماء

والأرض، وهل يتطابق مع

العلم الحديث؟....

في حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

أتدرون كم ما بين السماء والأرض؟ مسيرة

خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء

خمسمائة سنة، وكثف كل سماء خمسمائة

سنة. والآن وفي عصرنا هذا يقول علماء الفلك
أن الجزء المدرك من الكون يبلغ مسافة 20 ألف
مليون سنة ضوئية، والضوء يقطع مسافة 300
ألف كيلو متر في الثانية الواحدة. والذي فهمته
إن كل هذا في السماء الدنيا وأن المسافة التي
اكتشفها العلماء من الجزء المدرك يفوق بكثير
جداً ما ذكر في الحديث، فعلم الفلك يعارض هذه
المعلومات حيث يذكر أن المسافة المعلومة من
الفضاء تبلغ بلايين السنوات الضوئية. أرجوا
التفصيل في هذه المسألة وتوضيحها حيث أنني

وجدت العديد من المواقع تتساءل عن هذه المسألة وتعارضها مع الحقائق الفلكية. ولم أجد بحثًا حول ذلك، ولعلمي بحرصكم واهتمامكم بالإعجاز العلمي والدفاع عن الدين ونقض الشبهات توكلت على الله وأرسلت هذا السؤال... هناك حديث نبوي حول هذا الموضوع، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (هل تدرون كم بين السماء والأرض؟ قال قلنا الله ورسوله أعلم، قال: بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف

كل سماء مسيرة خمسمائة سنة) [رواه الترمذي،
وقال حديث حسن]. ولكن الشيخ الألباني قال عن
الحديث إنه ضعيف، فما العمل في مثل هذه
الحالة؟ إن الذي يقرأ هذا الحديث قراءة سطحية
يظن بأنه يتناقض مع الحقائق العلمية الحديثة،
والمشكلة أن علماء الحديث لم يتفوقوا على هذا
الحديث فمنهم من اعتبره صحيحاً ومنهم من
اعتبره ضعيفاً. وعندما نقول عن الحديث إنه
ضعيف يا أحبتي فلا يعني ذلك أنه غير صحيح،
بل قد يكون صحيحاً، ولكن هناك مشكلة ما في
سند الحديث من حيث الرواية. العلم يحدد المسافة

بين الأرض وأبعد مجرة بعشرين ألف سنة
ضوئية (وكل يوم يكتشف العلماء مجرات أبعد)،
أي أن الضوء يستغرق 20 ألف مليون سنة (أو
أكثر) حتى يقطع المسافة بين الأرض والسماء
الدنيا. والذي أراه أن كل ما ندركه في الكون
بمناظيرنا وأجهزتنا هو دون السماء الدنيا، لأن
الله تعالى زين السماء الدنيا (أي السماء الأولى)
بمصاييح وهي النجوم، يقول تعالى: (فَقَضَاهُنَّ
سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ

أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ

تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [فصلت: 12].



السَّمَاءِ وَاسِعَةً جَدًّا وَكُلَّ يَوْمٍ يَرَى
الْعُلَمَاءُ مَجْرَاتٍ جَدِيدَةً تَبْعُدُ عَنَّا
آلَافَ الْمَلَايِينِ مِنَ السَّنَوَاتِ
الضَّوئِيَّةِ، وَالْمَجْرَةُ هِيَ تَجْمَعُ ضَخْمًا
مِنَ النُّجُومِ وَأَبْعَدَ مَجْرَةً مَكْتَشَفَةً

حتى الآن تبعد عنا بحدود عشرين
ألف مليون سنة ضوئية (حسب
تقديرات العلماء وقد تكون
المسافة الحقيقية أكثر أو أقل، الله
أعلم). ولكن قد يكتشف العلماء نجوماً أبعد من
ذلك، فلا نستطيع الآن تحديد بعد السماء الدنيا
عنا، ولكن ماذا يعني (مسيرة 500
عام)؟ والعلماء يتحدثون عن عشرين ألف مليون
عام؟ هل هذا تناقض مع العلم أم أن هناك معجزة
في هذا الحديث؟ إن التشكيك بصحة هذا الحديث
هو أمر خطير، فنحن لسنا مؤهلين لتقييم أحاديث

النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم، ولذلك فإنني
أميل إلى الاعتقاد بصحته، ولكن أبحث عن تفسير
له، فربما نجد معجزة في مثل هذه الأحاديث. لأن
النبي لم يأت بشيء من عنده، بل علّمه الله علوماً
كثيرة لتكون دليلاً على نبوته في هذا
العصر. لاحظوا معي أن الحديث لم يحدد لنا كيفية
المسيرة، هل هي مسيرة 500 عام بسرعة
الإنسان، أم 500 عام بسرعة الخيل، أم بسرعة
الريح أو بسرعة البرق، أم أن هناك سرعة
مجهولة لا نعلمها أكبر من هذه بكثير؟! من

الأشياء العجيبة التي يقترحها بعض العلماء اليوم
أن سرعة الضوء ليست هي السرعة القصوى في
هذا الكون، إنما هناك أجسام أسرع بكثير من
الضوء!!! وفي حال صحّت هذه الفرضية عندها
سنكون أمام معجزة نبوية عظيمة، لأن النبي حدّد
لنا المسافة بين السماء والأرض بخمس مائة
عام، ويمكن أن أقوم بهذا الحساب البسيط، وهو
لتقريب الفكرة فقط. لو فرضنا أن أقصى مجرة تبعد
عن الأرض 20000000000 سنة ضوئية،

تريليون كيلو متر في الثانية فسنصل إلى حدود
السَّماء الدنيا في 500 سنة، وهذا يتطابق مع ما
حدثنا عنه النبي صلى الله عليه وسلم (حسب
الفرضية السابقة). وهذا يعني أن العلماء لو عثروا
على أجسام تسير بهذه السرعة الهائلة في
المستقبل فسيكون الحديث النبوي مطابقاً
للعلم! ومن هنا يا أحبتي نصل إلى نتائج مهمة
وهي: 1- ينبغي ألا نتسرع في الحكم على الحديث
النبوي، لأننا لم نؤت من العلم إلا القليل، يقول

تعالى: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) [الإسراء]:

[85]. لأن العلم يفاجئنا كل يوم بحقائق علمية

جديدة. 2- لنفرض الآن أن هذا الحديث غير

صحيح، ماذا ستكون النتيجة؟ طبعاً لن يتغير أي

شيء، لأن مثل هذه الأحاديث لا تغير شيئاً في

عقيدة المؤمن، فإذا كان الحديث صحيحاً وتطابق

مع العلم ازددنا إيماناً، وإذا كان الحديث غير

صحيح فليس هناك مشكلة، ولا ينبغي أن نفسح

مجالاً للمشككين أن يطعنوا في الإسلام بسبب هذا

الحديث أو غيره. إن أفضل طريقة للتعامل مع

الأحاديث الضعيفة أو الأحاديث التي نظنها

تتناقض العلم، أن نؤجل البحث فيها حتى يكتشف العلماء حقائق علمية جديدة، وأثناء نقاشنا مع الملحدين حول هذه الأحاديث نقول لهم بكل بساطة: إن العلم لم يتطور بعد لندرك المعنى

الصحيح فهل بعد هذا نقدر لأنفسنا قدر فنحن في

عالم الله لا تساوي أي شيء والدنيا وما فيها من

ملكوت لا تمثل بجوار الله شيئاً فكل هذه الأكوان

وما فيها من سموات واسعة مترامية الأطراف

وما فيها من نجوم وكواكب وأجرام وشموس

ونيازك ومجرات والأرض وما فيها من جبال

وبحار ومحيطات وأنهار كل ذلك لا يساوي واحد

علي بليون في حجم ملك ممن يحملون عرش

الرحمن سبحانه وتعالى وهؤلاء الملائكة الشداد
العظام لا يمثلون في حجم العرش من شيء فما
بالنا بمن خلق كل ذلك الجبار العظيم المتكبر ذو
الطول والحول والقوة العلي القدير المبين الا
يستحق التقديس والتعظيم والخوف والرجاء وأن
نسجد ونركع له آناء الليل وأطراف النهار بلي
يستحق أن نظل له في عبادة دائمة ما حيننا لنري
في الآخرة رب العزة ونري وجهه الكريم ونسعد
بجواره ونسأله سبحانه أن يعفو عنا ويتجاوز عما
نفعل فنحن نجهل قدره ونتمسح في عفوه فاللهم
لك الحمد في الأولى والآخرة ولك الكبرياء في
السموات والأرض توفني مسلماً وألحقتني

بالصالحين سبحان ربك عما يصفون وسلام علي
 المرسلين والحمد لله رب العالمين والصلاة
 والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

راجي عفو المبين /سيد أحمد أمين..... السبت

2017/ 8/26/



ISBN #: 978-1-387-19797-2
